حياة يونس

محمود شلبي

حياة يونس

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعـــة الثانية
١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م

الإهداء

اللهم . . . منك . . . وإليك . . .

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

أحمد الله . . . الذي لا إله إلاّ هو . . .

وأصلي . . . وأسلم . . . على خاتم النبيين . . .

وبعد . . .

كان فضلاً من الله عليّ عظيماً . . . أن مَنّ عليّ بالكتابة عن حياة الأنبياء . . . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . . .

فأعطاني . . . حياة آدم . . . حياة نوح . . . حياة إبراهيم . . . حياة يوسف . . . حياة موسى . . . حياة داود . . . حياة سليمان . . . حياة أيوب . . . حياة يحيى . . . حياة مريم . . . حياة المسيح . . . ثم مسك الختام . . . حياة رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم . . .

وها هي « حياة يونس » . . .

حلقة في تلكم السلسلة المباركة . . .

تتحدث عن حياة ذي النون . . . ذلك النبي الجميل الجليل . . .

ترقرق إلى قلبك . . . سلسبيلاً جميلاً . . .

لأن الأنبياء . . . موج مقدس . . . يموج رحمة للعالمين . . .

فلا ينبغي لمن يكتب عنهم . . . أن يقف عند الوقائع التاريخية . . .

وإنما عليه أن يغوص إلى أعماقِ بحارهم . . . ويستخرج منها اللؤلؤ والمرجان . . .

أما الاكتفاء بسرد الحوادث . . . فذلك شأن علم التاريخ . . .

والأنبياء وراء التاريخ . . . ووراء علم الظاهر . . .

« اللهُ نورُ السماواتِ والأرضِ . . .

« مثلُ نورهِ كمِشكاةٍ فيها مصباحٌ . . .

« المصباحُ في زجاجةٍ . . .

« الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّيّ . . .

« يُوقدُ من شجرةٍ مباركةٍ . . .

« زيتونةٍ . . .

« لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ . . .

« يكادُ زيتها يُضيء ولو لم تمسسْهُ نارٌ . . .

« نورٌ على نورٍ . . .

« يهدي الله لنوره من يشاءُ . . . »

هذا مثل نوره . . .

مثل أنبيائه . . . الذين هم مجالي أنواره . . .

فالأنبياء أنوار . . .

وما أنزل عليهم نور . . .

وهاهنا يجب التركيز . . . إلا أنه أمر عزيز . . .

لذلك استسهل كثير ممن كتبوا عن الأنبياء . . . سرد الوقائع . . . وغفلوا عن الأنوار . . .

أقول . . . وأرجو أن يأخذ الله بناصيتي إلى التوفيق . . .

سأحاول جهدي شعشعة شيء من نور نبي الله . . . يونس . . . عليه السلام . . .

عسى أن يكون هذا الكتاب أنسا . . . لمن شاء الله . . . من القلوب...

ربنا تقبّل منا . . . إنك سميع الدعاء . . .

القاهرة ١٤٠٥ هـ — محمود شلبي

١٩٨٥ م

وان يونس ...

لمن ...

المرسلين..؟!

قال جلّ ثناؤه :

« وتلك حجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ إنّ ربّك حكيمٌ عليمٌ .

« ووهبنا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ كُلاً هديْنا ونوحاً هديْنا مِن قبلُ ومِن ذرّيتِهِ داوُدَ وسليمان وأيوبَ ويوسف وموسى وهارونَ وكذلكَ نجزي المحسنينَ .

« وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياسَ كلٌ مِن الصالحينَ .

« وإسماعيلَ واليَسَعَ ويُونُسَ ولُوطاً وكُلاً فضّلْنا على العالمينَ » .

(سورة الأنعام ٨٣ – ٨٦)

قال الإمام الرباني العظيم . . . النخجواني . . . في تفسيره الخالد :

« و » من جملة تعظيمنا لإبراهيم – عليه السلام – ورفعنا له درجته إنّا قد . . .

« وهبنا له » من محض فضلنا وجودنا . . .

« إسحاق ويعقوب كلا هدينا » أي هدينا كلا منهما إلى توحيدنا . . .

« و » كذلك . . .

« نوحاً » هو جد إبراهيم قد . . .

« هدينا من قبل » فيكون إبراهيم — عليه السلام — وارثاً لهداية نوح . . . ومورثاً لهداية إسحاق ويعقوب . . . وهو من أعظم النعم . . . والهداية أكرم الكرم والعناية . . .

« و » كذا قد هدينا . . .

« من ذريته » أي ذرية إبراهيم . . .

« داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك » أي مثل جزاء هؤلاء الأنبياء المذكورين . . .

« نجزي » عموم . . .

« المحسنين » مع الله . . . المتشوقين بشرف لقائه . . .

« و » قد هدينا أيضاً . . .

« زكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل » منهم . . .

« من الصالحين » بعناية الله وهدايته . . .

« و » أيضاً . . . قد هدينا من ذرية إبراهيم . . .

« إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً و » بالجملة . . .

« كلا » من هؤلاء المذكورين قد . . .

« فضلنا بالحكمة والنبوة . . .

« على العالمين » أي على عموم الناس الموجودين في زمانهم . . .

* * *

ماذا في هذا من إشعاعات ؟ !

فيه أن يونس — عليه السلام — من ذرية إبراهيم . . .

وأنه نبي من النبيين . . .

وأنه ذروة في التوحيد . . . وذروة في الهدى . . . وذروة في الإحسان .. وذروة في الصلاح . . .

أي أن الكمالات الواجب توافرها في الأنبياء . . . متحققة فيه — عليه السلام —

هذا عن نبوته — عليه السلام — فهل كان من المرسلين ؟ . . .

نعم . . . بصريح القرآن . . .

قال تعالى :

« وإنَّ يونُسَ لمنَ المرسلينَ » .

(الصافات ١٣٩)

فكم عدد الذين أرسل إليهم ؟

الجواب :

« وأرسلناهُ إلى مائةِ ألف أوْ يَزيدُونَ » .

(الصافات ١٤٧)

ولكن . . . هل آمنوا . . . ونجحت دعوته ؟ . . .

الجواب :

« فآمنوا فمتّعناهُمْ إلى حِينٍ » .

(الصافات ١٤٨)

ولكن . . . هل آمنوا جميعاً بلا استثناء . . . أو آمن بعض وكفر بعض ؟ . . .

الجواب :

« فلولا كانَتْ قريةٌ آمنَتْ فنفعَها إيمانُها . . .

« إلاّ قوْمَ يونسَ . . .

« لمّا آمنوا كشَفْنا عنهُمْ عذابَ الخِزْيِ في الحياةِ الدنيا ومتّعْناهُمْ إلى حينٍ » .

(سورة يونس ٩٨)

إلاّ قوم يونس . . .

لمّا آمنوا . . .

كشفْنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا . . .

لقد آمنوا جميعاً . . . وكان ثمرة إيمانهم جميعاً . . . أن كشف عنهم العذاب جميعاً . . .

ولكن كيف كان ذلك . . . وماذا صنع معهم يونس . . . وماذا صنعوا معه ؛ ! . . .

يونان ...

ابن ...

أمتاي ..؟!

يُونُس – عليه السلام –

جاء ذكره عند أهل الكتاب هكذا :

يونان

الإصحاح الأول

وصار قول الرب إلى يونان بن أمتّاي قائلاً قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامي .

فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب .

فأرسل الرب ريحاً شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر . فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم . وأما يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوماً ثقيلاً . فجاء إليه رئيس النوتية وقال له ما لك نائماً .قم اصرخ إلى إلهك عسى أن يفتكر الإله فينا

فلا نهلك . وقال بعضهم لبعض هلمّ نُلقي قُرَعاً لنعرف بسبب من هذه البلية . فألقوا قُرَعاً فوقعت القرعة على يُونان .

فقالوا له أخبرنا بسبب من هذه المصيبة علينا . ما هو عملك ومن أين أتيت . ما هي أرضك ومن أي شعب أنت . فقال لهم أنا عبراني وأنا خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر . فخاف الرجال خوفاً عظيماً وقالوا له لماذا فعلت هذا . فإن الرجال عرفوا أنه هارب من وجه الرب لأنه أخبرهم . فقالوا له ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنا ، لأن البحر كان يزداد اضطراباً . فقال لهم خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم لأنني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم .

ولكن الرجال جذفوا ليرجعوا السفينة إلى البر فلم يستطيعوا لأن البحر كان يزداد اضطراباً عليهم . فصرخوا إلى الرب وقالوا آه يا رب لا نهلك من أجل نفس هذا الرجل ولا تجعل علينا دما بريئاً لأنك يا رب فعلت كما شئت . ثم أخذوا يونانَ وطرحوه في البحر فوقف البحر عن هيجانه . فخاف الرجال من الرب خوفاً عظيماً وذبحوا ذبيحة للرب ونذروا نذوراً . وأما الرب فأعدّ حُوتاً عظيماً ليبتلع يونان . فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ .

الإصحاح الثاني

فصلّى يونانُ إلى الرب إلهه من جوف الحوت وقال : دعوتُ من ضيقي الربَّ فاستجابني . صرخت من جوف الهاوية فسمعتَ صوتي . لأنك طرحتني في العُمْق في قلب البحار . فأحاط بي نهرٌ . جازت فوقي جميع تيّاراتك ولُججك . فقلت قد طُردت من أمام عينيك . ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك . قد اكتنفتني مياه إلى النّفْس . أحاط بي

غَمَرَ . التفَّ عُشب البحر برأسي . نزلتُ إلى أسافل الجبال . مغاليقُ الأرض عليَّ إلى الأبد . ثم أصعَدْتَ من الوهْدة حياتي أيها الرب إلهي . حين أعيَتْ فيَّ نفسي ذكرتُ الرب فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قُدسك الذين يُراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم . أما أنا فبصوْتِ الحمد أذبح لك وأوفي بما نذرته . للرب الخلاص .

وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر .

الإصحاح الثالث

ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلاً قم اذهب إلى نينَوى المدينة العظيمة ونادِ لها المناداة التي أنا مكلمك بها .

فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب . أما نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيام . فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد ونادى وقال بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى .

فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مُسُوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم . وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطّى بمِسْح وجلس على الرماد ونُودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً لا تذُق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً . لا ترْعَ ولا تشرب ماء . وليتغطَّ بمُسوح الناس والبهائم ويصرخوا إلى الله بشدة ويرجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم . لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حُمُوّ غضبه فلا نهلك .

فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندِم الله على الشرّ الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعْه .

الإصحاح الرابع

فغَمَّ ذلك يونان غمّاً شديداً فاغتاظ وصلّى إلى الرب وقال آه يا ربّ أليس هذا كلامي إذ كنتُ بعد في أرضي . لذلك بادرتُ إلى الهرب إلى ترشيش لأني علمتُ أنك إلهٌ رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشرّ . فالآن يا ربّ خُذ نفْسي مني لأن موتي خير من حياتي . فقال الرب هل اغتظتَ بالصواب .

وخرج يونان من المدينةوجلس شرقيَّ المدينة وصنع لنفسه هناك مظلّة جلس تحتها في الظل حتى يرى ماذا يحدث في المدينة . فأعدّ الرب الإله يَقْطينةً فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاًّ على رأسه لكي يخلّصه من غمّه . ففرح يونان من أجل اليَقْطينة فرحاً عظيماً .

ثم أعدّ الله دُودة عند طلوع الفجر الغد فضربت اليقطينة فيبستْ . وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعدّ ريحاً شرقية حارّة فضربت الشمس على رأس يونان فذبُلَ فطلب لنفْسه الموت وقال موتي خير من حياتي .

فقال الله ليونان هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة . فقال اغتظتُ بالصواب حتى الموت . فقال الرب أنت شفِقْتَ على اليقطينة التي لم تتعبْ فيها ولا ربّيتها التي بنْتَ ليلة كانت وبنْتَ ليلة هلكتْ . أفلا أشفَقُ أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يُوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرةٌ .

* * *

هذه هي النصوص التي وردت في الكتاب المقدس . . . نقلناها

حرفياً . . . لنأخذ منها فكرة عن تسلسل أحداث قصة يونس — عليه السلام — مع الذين أرسل إليهم . . . أهل نينوى . . .

ونبه هاهنا أن التعبير عن الرب بمثل « ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه » . . . ومثل « لأني علمتُ أنك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشرّ » . . .

أقول لا يجوز وصف الله بالندم . . . لأن الله لا يندم . . . وإنما يعفو ويغفر ويقبل التوبة عن عباده . . .

كما أن الله لا يوصف فعله بقوم يونس على أنه شر . . .

كلاّ بل هو عذاب . . .

فلا شر هناك . . . وإنما هو العذاب . . .

سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ! ! !

لا ينبغي لعبد ...

ان يقول أنا خير ...

من يونس بن متى ..؟!

الأنبياء . . . صلوات الله وسلامه عليهم . . . كم عددهم ؟!

جاء في صحيح البخاري . . . في « كتاب أحاديث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » . . .

جواب عن هذا السؤال :

حيث قال الإمام العيني شرحاً للباب السابق ذكره :

« أي هذا كتاب في بيان أحاديث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . .

« وأما عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن أبا ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة عشرون ألفاً . . . قلت : يا رسول الله : كم أرسل منهم ؟ . . . قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر . . . جم غفير . . . الحديث رواه ابن حبان في صحيحه وابن مردويه في تفسيره . . .

« وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم : بعث الله ثمانية آلاف نبي . . أربعة آلاف إلى بني إسرائيل . . . وأربعة آلاف إلى سائر الناس . . . رواه أبو يعلى الموصلي . . . وعنه قال : قـــال رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم : بعثت على أثر

ثمانية آلاف نبي . . . منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل. . . رواه الحافظ أبو بكر الإسماعيلي » .

وكان يونس — عليه السلام — رسولاً من بني إسرائيل . . .

روى البخاري في صحيحه :

« عن عبد الله رضي الله عنه . . .

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يقولنّ أحدُكم إنّي خيرٌ من يونُسَ . . .

« زاد مُسدّدٌ . . . يونسَ بن متّى » .

وجاء في شرح الحديث . . . قال العلماء : إنما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم لما خشي على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له . . . فذكره لسد هذه الذريعة . . .

وفي حديث آخر للبخاري . . .

« عن ابن عباس رضي الله عنهما . . .

« عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« ما ينبغي لعبدٍ أن يقول إنّي خيرٌ من يونُسَ بن متّى . . .

« ونسَبَه إلى أبيه . . . »

ومن حديث للبخاري كذلك . . . قوله صلى الله عليه وسلم . . .

« . . . ولا أقولُ إنّ أحداً أفضلُ من يونُسَ بن متّى » . . .

وفي شرحه . . . « أي لا أقول من عند نفسي . . . أو قاله صلى الله عليه وسلم تواضعا وهضماً لنفسه » .

قلت . . . إن رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم . . . يعلم الناس جميعاً ما ينبغي أن يكون عليه كل إنسان من الأدب. . . نحو يونس — عليه السلام —

فلربما وسوس الشيطان في الصدور : كيف يقع هذا من يونس . . . وكيف يهرب من قومه قبل أن يأذن الله له . .. وهل هذا يجوز وقوعه من رسول أرسله الله وشرفه بحمل رسالته ؟ !

وللشيطان عليه اللعنة وساوس تزلزل العقول . . . وتذهب بها المذاهب . . .

فما أعظم الدواء . . . لهذا الداء . . .

حين نهى الله صلى الله عليه وسلم . . . فقال :

« لا يقولنّ أحدُكم . . .
« إني خيرٌ من يونُسَ بنِ متّى » ! ! !

يونس ...

في ...

المؤلفات الحديثة .. ؟!

تحرر كثير . . .

من علماء اليوم . . . من الاضطراب المنتشر في كثير من المراجع القديمة . . . وقاموا بجهد عظيم في تقديم قصص القرآن . . . في خلاصة جميلة . . . تناسب قارىء اليوم . . .

ومن هؤلاء أصحاب كتاب « قصص القرآن » . . . وإليك ما جاء به عن يونس — عليه السلام —

قالوا :

يونس *

في نينوى ، وتحت ظلال الأصنام ، وبين حنادس الجهل والشرك ، أشعل يونسُ قبَسَ الإيمان ، وحمل علَم التوحيد ، وأهاب بقومه الجاهلين : أن اربَئُوا بعقولكم عن عبادة الأصنام ، وكرّموا جباهكم أن تسجد لهذه الأوثان ، وتبصّروا في أنفسكم ، وأنعِمُوا النظر فيما حولكم وما يحيط بكم ، تجدوا أن وراء هذا الكون البديع إلهاً كبيراً . فَرْداً صَمَداً ، جديراً بأن يختصّ بالعبادة ، ويُقصَدَ وحده بالتقديس،

(*) الصافات ١٣٩ — ١٥٨ ، الانبياء ٧٨ و ٨٨ ، الانعام ٦٦ — ٨٧ ، يونس ٩٨

أرسلني هداية لكم ، ورحمة بكم ، لأدلكم عليه ، وأرشدكم إليه ؛ إذ كان الجهل قد رانَ على قلوبكم فلم تتبصَّر ، وغشّى على بصائركم فلم تتدبَّر .

فدُهِش القوم أن سمعوا قولاً لم يألفوه، وحديثاً عن إله لم يعرفوه، وكَبُرَ عليهم أن يَرَوْا واحداً كان منهم فخرج عليهم ، ورجلاً من عامتهم ينصب نفسه رسولاً إليهم ، وهادياً لهم .

قالوا : ما هذا القول الذي تهذِر به ، والبهتان الذي تدعو إليه ؟ هذه آلهة عبدها آباؤنا من قبل ، ونعبُدُها نحن اليوم ، وما الذي حدث في الكون أو ظهر من الأحداث ، حتى نترك هذا الدين الذي نعتقده ، ونستريح إلى دين أبدَعْته واخترعْتَه ، وجئتَ تدعو إليه ، وتجاهد فيه ؟

قال : يا قوم ، ارفعوا عن عيونكم غشاوة التقليد ، ومزّقوا عن عقولكم نسيج الأوهام ، وفكّروا شيئاً ، وتدبروا قليلاً ، أهذه الأوثان التي تتوجهون إليها في صباحكم ومسائكم ، وتعتمدون عليها في قضاء حاجاتكم أو دفع الشرّ عنكم ، تجلب لكم نفعاً ، أو تستطيع أن تدفع عنكم شرّاً ؟ أهي قادرة على أن تخلُقَ شيئاً ، أو تحيي ميتاً ، أو تشفي مريضاً ، أو تردّ ضالاً ؟ أهي تستطيع دفع الشر لو أردتَه بها ، أو تقيم نفسها لو حطمتَها وهشّمتَها ؟

ثم ما لكم تُعرضون عن هذا الدين الذي أدعوكم إليه ؟ وهو يأمركم بما فيه صلاح أموركم ، واستقامة أحوالكم ، وتقويمُ جماعتكم ؛ يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويُبغّضكم في الظلم ، ويحبّبُ إليكم العدل والسلام ، وينشر فيما بينكم الأمان والاطمئنان، ثم هو يحثّكم على العطف على المسكين ، والحدَب على الفقير ، وإطعام الجائع ، وفكّ العاني مما فيه صلاح الحال ، واستقامة الأعمال .

فما ظفر منهم إلاّ بجواب الجاهلين ، وما جادلوه إلاّ بسفسطة المتعنّتين ، قالوا : ما أنت إلاّ بشر مثلنا ، وواحد منا ، ولا سبيل إلى نفوسنا أن تَسيرَ في هَدْيِك ، أو تذعن لدعوتك ، فكَفْكِف من غَرْبك ، وأقصِرْ من قولك ، ودون ما ترجو غايات بعيدة ، وحجز قائمة .

قال : لقد دعوتكم بالهوادة واللين ، وجادلتكم بالّتي هي أحسن ، فإذا كانت دعوتي تصل إلى قرارة نفوسكم ، كان الخير الذي أرجوه ، والإيمان الذي أبتغيه ، وإلاّ فإني أنذركم عذاباً واقعاً ، وبلاء نازلا ، وهلاكاً قريباً ترون طلائعه ، وتتقدم إليكم دلائله .

قالوا : يا يونس ، ما نحن بمستجيبين لدعوتك ، ولا خائفين من وعيدك ، فأتينا بما تعِدُنا إن كنتَ من الصادقين .

ولم يُطِق يونس صبراً ، بل ضاق بهم ذرعاً ، وقطع الرجاء فيهم قبل مُطاولتهم ومدّ الحبل لهم ، فرحل عنهم مغاضباً لهم ، يائساً من إيمانهم ، نافضاً الكفّ منهم ؛ إذ دعاهم فلم يؤمنوا ، وبصّرهم فلم يتدبروا ، وجادلهم فلم يستمعوا ، وحسب أن الدعوةَ مقصورة على ما فعل ، وظن أنه يكفي لإبلاغها ما كان .

ولعله لو كان قد أطال مدته ، واستمر في نشر دعوته ، لوجد فيهم مَنْ يؤمن ويستجيب ، ولوجد فيهم من يستغفر ويُنيب ، ولكنه رحل ليلقى من الله قضاءً ويتلقى جزاء .

ولم يكد يبعُد يونس قليلاً عن نينوى ، حتى وافتْ أهلها نُذُر العذاب ، واقتربت منهم طلائع الهلاك ، اغْبَرَّ الجوّ حولهم ، ثم تغيرت

ألوانهم ، وتشيّأت [1] وجوهُهم ، فداخلهم القلق ، وساورهم الخوف ، وعلموا أن دعوة يونس حق ، وإنذاره صدق ، وأن العذاب لا بدّ بهم واقع ، وأنه سيصيبهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح .

ولكنه وقع في نفوسهم أن يلجئوا إلى إله يونس فيؤمنوا ، ويتوبوا إليه ويستغفروا ، فخرجوا إلى شِعاف [2] الجبال ، وبطون الصحراء ، شاكين متضرعين باكين متوسلين ، وفرّقوا بين الأمهات وأطفالها ، والإبل وفُصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ، ثم أعْوَل الجميع ، فصاحت الأمهات ، ورَغت [3] الإبل ، وخارت البقر ، وثغتِ [4] الغنم ، وكانت ساعة بسط الله عليهم بعدها جَناح رحمته ، ورفع عنهم سحائب نِقْمَتِه ، وتقبّل منهم التوبة والإنابة ، إذ كانوا مخلصين في توبتهم ، صادقين في إيمانهم ، ورد عنهم العقاب وحبَس العذاب ، ورجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين ، وودّوا لو يعود إليهم يونس ، ليعيش بينهم رسولا ونبياً ومعلماً وإماماً .

ولكنه — وقد فارقهم ، وترك ديارهم — أخذ يضرب في الأرض ويُغِذّ [5] في السير ، حتى انتهى إلى البحر ، وهناك وجد جماعة يعبُرون ، فسألهم أن يصحبوه معهم ، ويحملوه في سفينتهم ، فقبلوه على ارتياح ، وأنزلوه بينهم منزلا كريماً ، ومقاماً عزيزاً ، إذ كان يظهر في وجهه الكرمُ والسماح ، وتتحدث غرّته عن تقوى وصلاح ، ولكنهم ما ابتعدوا عن الشاطىء ، وجاوزوا البر ، حتى هاجت الأمواج ، واصطلحت

---

(١) تشيات : تشوهت .
(٢) شعاف : جمع شعفة ، وهي راس الجبل .
(٣) الرغاء : صوت الابل .
(٤) الثغاء : صوت الغنم .
(٥) يغذ في السير : يسرع .

على السفينة الأعاصير . وتوقّع الراكبون سوء المصير ؛ فزاغت الأبصار ، وانخلعت القلوب ، ورجفت القوائم ، ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلاّ أن يتخففوا ، فاشتَوَروا ما يصنعون ، ثم اتفقوا على الاقتراع ، فساهم[1] الجميع ، ووقع السّهم على يونس ، ولكنهم ضنّوا به على البحر ، تكريماً لشأنه وعرفاناً بمكانه ، فعادوا للمساهمة ، وعاد السهم على يونس ، فضنوا به أيضاً ، وعادوا للمساهمة فعاد السهم عليه !

فعلم يونس أن من وراء ذلك سرّاً ، وأن لله في ذلك تدبيراً ، وأدرك خطيئته ، وما كان من تركه لقومه قبل أن يؤذَن له في الهجرة ، أو يستخير اللهَ في الرحيل ، فألقى بنفسه في اليَمّ ، وأسلم نفسه للأمواج ، يتقلّب بين طيّاتها ، ويتخبّط في ظلماتها .

وأوحى الله إلى الحوت أن يبتلعه ، وأن يطويَهُ في بطنه ، ولكن على ألاّ يأكل لحمه ، ولا يهشّم عظمه ، فما هو إلاّ نبيّ كريم ، تأوّل[2] فلم يُصِبْ ، وعَجِل ثم ندم ، وأنه وديعة عنده ، يؤديها حينما يأذن له الله .

وقبع يونس في بطن الحوت ، والحوت يشق الأمواج ، ويهوي إلى الأعماق في ظلمات متضاعفة . وحنادس متعاقبة ، فضاق صدره ، واعتلج همّه . وفزع إلى الله غياث الملهوف ، وملجإ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة ، وغافر الذنب : (فَنَادَى في الظُّلُمَاتِ أنْ لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

فاستجاب الله الدعاء ، وأوحى إلى الحوت في الماء : ألقِ بضيفك في

---

(١) ساهموا : اقترعوا .
(٢) تأول : اتى بتفسير وظن .

العَراء ؛ فقد أوفى على الغاية ، ونال ما قُدِّر له من جزاء ، فألقاه على الشاطىء سقيماً هزيلاً ، مُدنفاً عليلاً ، وتلقّته رحمة الله فأنبتت عليه شجرة من يَقْطين (١) ، طعِم بثمرها ، واستظلّ بورقها ، ودبّت إليه العافية ، وظهرت فيه تباشير الحياة .

ولما استوى على سوقه ، ورجع إلى سابق عهده ، أوحى الله إليه : أن ارجع إلى بلدك ، وموطن آصِرَتِك وعشيرتك ، فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان ، ونبذوا الأصنام ، الأوثان ، وإنهم الآن يتحسسون مكانك ، ويترقبون مجيئك .

وعاد يونس إلى قريته ، وما راعه إلاّ أنه خلّفهم وليس فيهم إلاّ من هو عاكف على الأصنام ، وعاد إليهم وما فيهم إلاّ ألسنة تلهج بذكر الرحمن .

(١) اليقطين : نبات لا ساق له .

اذ ...

ابى ...

الى الفلك المشحون ..؟!

باسمك اللهم . . .

نستفتح « حياة يونس » من كتابك الكريم

فنقول : قال تعالى في سورة الصافات :

« وإنْ : ِنُس َ لمنَ المرسلينَ .

« إذْ أبَقَ إلى الفُلْكِ المشحونِ .

« فساهَمَ فكانَ منَ المُدْحَضينَ .

« فالتَقَمهُ الحُوتُ وهو مُليمٌ .

« فلولا أنّهُ كان مِنَ المسَبِّحينَ .

« لَلَبِثَ في بطنِهِ إلى يوْمِ يُبعثونَ .

« فنبَذناهُ بالعراءِ وهو سقيمٌ .

« وأنبتْنا عليهِ شجرةً مِن يَقْطين .

« وأرسلناهُ إلى مائةِ ألفٍ أوْ يزيدُونَ .

« فآمنوا فمتّعناهم إلى حينٍ » .

(سورة الصافات ١٣٩ — ١٤٨)

هذه هي حياة يونس باختصار . . .

وعناصرها هي . . . يونس من المرسلين . . . هرب إلى السفينة . . . اقترع أهل السفينة فخرجت القرعة على يونس . . . ألقوه إلى البحر فالتقمه الحوت . . . . لولا أنه كان من قمة أهل التوحيد ما خرج من بطن الحوت.. ألقاه الحوت بالعراء وهو سقيم . . . ثم أنبت الله عليه شجرة تظله حتى ذهب عنه السقم . . . ثم أرسله إلى أهل مدينة نينوى وكان سكانها أكثر من مائة ألف . . . آمنوا جميعاً بيونس واستقبلوه بحفارة عظيمة. فعاشوا سعداء واستمتعوا بحياتهم إلى حين انقضاء آجالهم ! ! !

هذه عناصر حياة يونس . . . كما جاءت في كتاب الله . . . ومَن أصدق من الله قيلاً ؟ !

« إذْ أبَقَ » هرب . . . وأصله الهرب من السيد . . . لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه كما هو الأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام حسن إطلاقه عليه . . .

وقال بعض الكمل : الاباق الفرار من السيد بحيث لا يهتدي إليه طالب أي بهذا القصد . . . وكان عليه السلام هرب من قومه بغير إذن ربه سبحانه إلى حيث طلبوه فلم يجدوه فاستعير الاباق لهربه . . .

« إلى الفُلْكِ المشحُون » المملوء . . .

« فساهَمَ » فقارع عليه السلام من في الفلك . . .

« فكان من المُدحَضين » فصار من المغلوبين بالقرعة . . .

يروى أنه وعد قومه العذاب وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام . . . فلما كان اليوم الثالث خرج يونس قبل أن يأذن الله تعالى له . . . ففقده

قومه . . . فخرجوا بالكبير والصغير . . . والدواب . . . وفرقوا بين كل والدة وولدها . . . فشارف نزول العذاب بهم . . . فعجوا إلى الله تعالى وأنابوا . . . واستقالوا فأقالهم الله تعالى . . . وصرف عنهم العذاب ... فلما لم يرَ يونس نزول العذاب استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذاباً أبداً . . . ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها . . . فلما وصلت اللجة وقفت فلم تسر فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلاّ أن فيكم رجلاً مشؤوماً . . . فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة في الماء ... فوقعت على يونس . . . ثم أعادوا فوقعت عليه . . . ثم أعادوا فوقعت عليه . . . فلما رأى ذلك رمى بنفسه في الماء ! ! !

وعند النخجواني في تفسيره :

« إذ أبق » وهرب من نزول العذاب الموعود على قومه . . . حين دعاهم إلى الإيمان والتوبة فلم يقبلوا منه دعوته ولم يجيبوا له . . . فدعا عليهم . . . وبعدما قرب حلول العذاب عليهم . . . خرج من بينهم هارباً حتى لا يلحقه ما لحقهم . . . فلما وصل البحر ركب . . .

« إلى الفلك المشحون » المملوء من الناس والأحمال والأثقال . . . فاحتبست السفينة على أهلها فاضطربوا . . . فقال البحارون ان في السفينة عبداً آبقاً . . . فبادروا إلى القرعة على ما هو عادتهم في أمثاله . . . وبعد ما خرج القرعة باسم واحد من أهلها طرحوه في الماء فأخذت السفينة في الجري والذهاب . . .

« فساهم » أي قارع حينئذٍ أهلها . . . فخرج باسم يونس . . .

« فكان من المدحضين » المغلوبين . . . المغرقين بمقتضى القرعة . . .

وبعدما خرجت القرعة باسمه تفطن يونس عليه السلام . . . أنــه من الاختبارات الإلهية ... فقال أنا العبد الآبق . . . فرمى نفسه في الماء خوفاً من غضب الله . . . ومن شدة غيرته وحميته وتوطيناً لنفسه على مقتضى قضاء الله . . . مفوضاً أمره إليه سبحانه . . .

وبعدما وصل إلى جوف الماء ؟ ! !

فالتقمه ...

الحوت ...؟!

يروي الرواة . . .

أقاصيص فيها أفانين من الخيال . . . في تصوير كيفية التقام الحوت ليونس . . .

ولكن الحق الذي لا باطل فيه . . . أن الحوت التقم يونس . . . فور إلقائه إلى البحر . . . لقوله تعالى :

« فالتَقَمَهُ الحُوتُ وهو مُلِيمٌ » .

« فالتقمه الحوت » أي ابتلعه . . .

وفي خبر أخرجه أحمد . . . وغيره . . . عن ابن مسعود . . . أنه أتى قوماً في سفينة فحملوه وعرفوه . . . فلما دخلها ركدت والسفن تسير يميناً وشمالاً فقال : ما بال سفينتكم ؟ . . . قالوا : ما ندري . . . قال: ولكني أدري. . . إن فيها عبداً آبق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تلقوه . . . قالوا : أما أنت والله يا نبي الله فلا نلقيك . . . فقال لهم : اقترعوا فمن قرع فليلق . . . فاقترعوا ثلاث مرات . . . وفي كل مرة تقع القرعة عليه . . . فرمى بنفسه . . . فكان ما قصّ الله تعالى . . .

وكيفية اقتراعهم على ما في البحر عن ابن مسعود . . . أنهم أخذوا لكل سهماً . . . على أن من طفا سهمه فهو. . . ومن غرق سهمه فليس إياه . . .

فطفا سهم يونس . . .

وروي أنه لما وقف على شفير السفينة ليرمي بنفسه رأى حوتاً . . . قد رفع رأسه من الماء قدر ثلاثة أذرع . . . يرقبه ويترصده . . . فذهب إلى ركن آخر فاستقبله الحوت . فانتقل إلى آخر فوجده . . . وهكذا . . . حتى استدار بالسفينة . . . فلما رأى ذلك عرف أنه أمر من الله تعالى. . . فطرح نفسه . . . فأخذه قبل أن يصل إلى الماء . . .

« وهو مُليمٌ » وهو آت بما يلام عليه . . . لما أتى بما يستحق اللوم عليه . . . صار ذا لوم . . . أو مُليم نفسه . . .

وما روي عن ابن عباس . . . ومجاهد . . . مـــن تفسيره بالمسيء والمذنب. . . فبيان لحاصل المعنى . . . وحسنات لأبرار سيئات المقربين ...

وفي تفسير النخجواني :

« فالتقمه الحوت » بالهام الله إياه على الفور وابتلعه . . .

« وهو » حينئذ . . .

« مُليم » نفسه . . . نادم على فعله الذي فعله . . . بلا نزول وحي من ربه . . . لذلك أخذ حينئذ يسبح ربه عما لا يليق بشأنه . . .

﴿ إشعاعات ﴾

فالتقمه الحوت ؟ ! !

الفاء . . . للفورية ...

فوراً التقمه . . . فوراً ابتلعه . . .

يونس ينقذف إلى البحر . . . والحوت يفتح فمه . . .

هذا يهوي إلى الماء . . . وذاك يتلقاه . . . ويلتقمه ! ! !

هاهنا آيات من القُدرة . . . وبدائع من الصنع الإلهي . . .

أمرٌ صدر إلى الحوت . . . التقِم يونس . . .

فما استطاع الحوت إلاّ أن يفعل ما يأمره ربه . . .

وما استطاع يونس إلاّ أن يفعل ما يريد منه ربه . . .

أشدكم بلاء الأنبياء . . .

إنهم يحاسبون حساباً شديداً . . .

ويونس نبي . . . ويعلم سُنةَ الله في أنبيائه . . .

لقد تعجل الذهاب عن قومه . . . وخرج عنهم قبل أن يؤذن له . . .

فاستقبله بلاء شديد . . . وحُبس في بطن الحوت . . .

ليعلم أن الأمر أمر الله . . . وأن ليس له أن يتحرك إلاّ بإذن من الله . . .

كيف كان يونس وهو يدخل إلى جوف الحوت ؟ ! !

هل سيعتصره الحوت كما تعتصر الحيتان ضحاياها من الأسماك ؟ !

لا يدري يونس . . . ماذا أراد الله به ؟ ! !

ولكن كيف يبقى يونس حياً . . . في بطن الحوت ؟ !

هاهنا معجزة . . . لا تستطيع العقول لها تفسيراً . . .

وإن بقي حياً . . . فكيف يستمر في حياته داخل الحوت ؟ !

كيف يتنفس . . . ولا بد له من التنفس ؟ !

كيف يأكل . . . كيف يشرب . . . كيف يبول ويقضي الحاجة ؟ !

وهل ألقى بنفسه إلى البحر . . . عرياناً أو بملابسه ؟ !

وهل فزع وهو يُلتقم أو كان من الآمنين ؟ !

هنالك استفسارات شتى . . . لا جواب لها إلاّ أن نقول : إنها معجزة عجيبة . . . ينحتم على العقول أن تخشع لها . . . وتسلم لله تسليماً ! ! !

ثم ماذا ؟ ! . . . ثم قوله « وهو مُليمٌ » . . . ماذا فيها من إشعاعات ؟

فيها أن يونس وهو يُلتقم . . . كان لوّاماً لنفسه . . . نادماً على فعله الذي أورده ذلك البلاء الشديد . . .

لماذا فعلت ما آخذني الله به وضيّق عليّ هذا الضيق ؟ !

كنت أرجو لنفسي النجاة . . . فجاءني الموت من كل مكان ! ! !

فلولا ...

انه كان ...

من المسبحين ... ؟!

هاهنا مفاجأة . . .

حين أطبق الحوت فمه على يونس . . .

استسلم يونس لهلاك محقق . . . لأن القانون الطبيعي . . . أن يهضمه الحوت طعاماً شهياً . . .

ولكنه فوجيء بمعجزة أخرى . . .

أنه يحيا حياة طبيعية . . . كأن بطن الحوت له شيئاً هنيّـاً ! ! !

كيف كان ذلك ؟ !

إنها القُدرة . . . قدرة القادر القدير المقتدر ! ! !

« فلولا أنه كان من المسبّحين » أي من الذاكرين الله تعالى كثيراً بالتسبيح . . .

وهذا الكون عند بعض قبل التقام الحوت إياه . . . أيام الرخاء . . .

واستظهر أبو حيان . . . أنه في بطن الحوت . . . وأن التسبيح ما ذكره الله تعـالى في قوله سبحانه : (فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) . . .

وحمله بعضهم على الذكر مطلقاً . . .

وبعض آخر على العبادة كذلك . . .

وجماعة منهم ابن عباس على الصلاة . . . بل روي عنه أنه قال : كل ما في القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة . . .

أخرج أحمد في الزهد . . . وغيره . . . عن ابن جبير . . . في قوله تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين) قال : من المصلين قبل أن يدخل بطن الحوت . . .

وأخرج أحمد وغيره أيضاً عن الحسن في الآية قال : ما كان إلاّ صلاة أحدثها في بطن الحوت . . . فذكر ذلك لقتادة فقال : لا إنما كان يعمل في الرخاء . . .

وروي عن الحسن غير ما ذكر . . . فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم . . . والبيهقي في شعب الإيمان . . . والحاكم أنه قال في الآية : كان يكثر الصلاة في الرخاء . . . فلما حصل في بطن الحوت ظن أنه الموت فحرّك رجليه . . . فإذا هي تتحرك . . . فسجد . . . وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يسجد فيه أحد . . .

وأخرج ابن أبي شبة عن الضحاك بن قيس قال : اذكروا الله تعالى في الرخاء يذكركم في الشدة . . . فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى . . . فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين) الخ . . . وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لذكر الله تعالى فلما أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فقيل له (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) ...

والأولى حمل زمان كونه من المسبحين على ما يعم زمان الرخاء وزمان كونه في بطن الحوت . . . فإن لاتصافه بذلك في كلا الزمانين مدخلاً في خروجه من بطن الحوت المفهوم من قوله تعالى: (فلولا أنه كان من المسبحين) . . .

« للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » عن أنس مرفوعاً . . . أنه عليه السلام لما التقمه الحوت وهوى به حتى انتهى إلى ما انتهى من الأرض سمع تسبيح الأرض . . . فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . . . فأقبلت الدعوة نحو العرش . . . فقالت الملائكة : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً . . . من بلاد غربة . . . قال سبحانه : وما تدرون ما ذاكم ؟ . . . قالوا : لا يا ربنا . . . قال : ذاك عبدي يونس ... قالوا : الذي كنا لا نزال نرفع له عملاً متقبلاً ودعوة مجابة ؟ . . قال : نعم . . . قالوا : يا ربنا ألا ترحم ما كان يصنع في الرخاء وتنجيه عند البلاء ؟ . . قال : بلى . . . فأمر عز وجل الحوت . . . فلفظه . . .

واستظهر أبو حيان أن المراد بقوله سبحانه (للبث في بطنه) الخ . . . لبقي في بطنه حياً إلى يوم البعث . . .

وعن قتادة . . . لكان بطن الحوت قبراً له . . .

وعند النخجواني :

« فلولا أنه كان من المسبحين » المنكشفين بوحدة الحق وبكمال تنزهه عن سمة الكثرة مطلقاً . . .

« للبث » واستقر . . .

« في بطنه » أي بطن الحوت . . .

« إلى يوم يبعثون » وصار بطن الحوت له كالقبر لسائر الأموات ... وبالجملة لا نجاة له من بطنه أبداً . . .

﴿ إشعاعات ﴾

فلولا أنه كان من المسبحين ؟ !

كان قبل كونه في بطن الحوت . . . وحال كونه في بطن الحوت . . .

إنه دائماً ذاكراً لنا . . .

ووقعت المفاجأة . . . معجزة أخرى . . .

يونس حيّاً . . . في بطن الحوت . . .

هاهنا شيء عجيب . . .

وشهد يونس . . . مشهداً جميلاً . . . هو في الظلمات . . .

هاهو وحده . . . في بطن الحوت . . .

إن الزمان والمكان مخلوقان . . . لا يقيدان الله . . .

فالله يقدر أن يبطل مفعولهما . . . ويخلق من بدائع القدرة ما شاء مكانهما . . .

لقد حبسه الله في أعجب مكان يحبس فيه إنسان . . .

وهاهو الحوت يجري به من البحر في كل مكان . . .

فاجتمع على يونس ظلمة بطن الحوت . . . وظلمة الليل . . . وظلمة البحر حين هوى به الحوت إلى القاع . . .

بل وأعجب من ذلك — كما جاء في إحدى الروايات — أن جاء حوت أكبر . . . فابتلع الحوت الذي في بطنه يونس . . .

ظلمات بعضها فوق بعض . . .

فماذا كان من صاحب الحوت ؟ ! !

فنادى في الظلمات ...

أن لا اله الا أنت ...

سبحانك .. ؟!

قال تعالى :

«وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

« فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤمِنِين » .

(سورة الأنبياء ٨٧ — ٨٨)

«وذا النون » أي واذكر صاحب الحوت يونس عليه السلام ابن متى ... والنون الحوت ... ويجمع على نينان وأنوان ...

« إذ ذهبَ مُغاضباً » أي غضبان على قومه لشدة شكيمتهم وتمادي اصرارهم مع طول دعوته إياهم ... وكان ذهابه هذا هجرة عنهم لكنه لم يؤمر به ...

وقرىء (مغضَباً) اسم مفعول ...

« فظنّ أن لن نقْدرَ عليه » أي الشأن لن نقدِر ونقضي عليه بعقوبة ونحوها ...

أو : لن نضيق عليه أمره بحبس ونحوه ...

ويؤيد الأول قراءة عمر بن عبد العزيز ... والزهري ... (نُقَدّر)..

وقراءة عليّ كرم الله تعالى وجهه . . . واليماني (يُقَدّر) . . .

فإن الفعل فيهما من التقدير بمعنى القضاء والحكم كما هو المشهور . . .

ويجوز أن يكون بمعنى التضييق فإنه ورد بهذا المعنى . . .

وظن معاوية رضي الله تعالى عنه أنه من القدرة . . . فاستشكل ذلك . . . إذ لا يظن أحد فضلاً عن النبي عيله السلام عدم قدرة الله تعالى عليه . . . وفزع إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنه فأجابه بما ذكرناه أولاً . . .

وجوز أن يكون من القدرة وتكون مجازاً عن أعمالها . . . أي فظن أن لن نعمل قدرتنا فيه . . .

أو يكون الكلام من باب التمثيل . . . أي فعل فعل من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا . . .

وقرىء (يُقدَر) بضم الياء . . . وفتح الدال مخففا . . .

وقرىء (يَقْدِر) بالياء مفتوحة وكسر الدال . . .

« فنادى » أي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى . . .

« في الظلمات » في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت . . . جعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات . . .

أو الجمع على ظاهره . . . والمراد ظلمتي بطني الحوتين . . . وظلمتي البحر والليل . . .

« أن لا إله إلاّ أنت » بأنه لا إله إلاّ أنت . . .

« سبحانك » أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يعجزك شيء . . . أو أن يكون ابتلائي بهذا من غير سبب من جهتي . . .

« إني كنت من الظالمين » لأنفسهم بتعريضهم للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة من غير أمر على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام . . .

وهذا اعتراف منه عليه السلام بذنبه . . . وإظهار لتوبته . . . ليفرج عنه كربته . . .

« فاستجبنا له » أي دعاءه الذي دعاه في ضمن الاعتراف وإظهار التوبة . . . على ألطف وجه وأحسنه . . .

أخرج أحمد . . . والترمذي . . . والنسائي . . . والحكيم في نوادر الأصول . . . والحـــاكم وصححه . . . وابن جرير . . . والبيهقي في الشعب . . . وجماعة . . . عن سعد بن أبي وقاص . . .

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« دعوة ذي النون . . .

« إذ هو في بطن الحوت . . .

« لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . . .

« لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلاّ استجاب له » .

وأخرج ابن أبي حاتم . . . عن الحسن . . . **أن ذلك اسم الله تعالى الأعظم . . .**

وأخرج ذلك الحاكم . . . عن سعد مرفوعاً . . .

وجاء عن أنس مرفوعاً . . . أنه عليه السلام . . . حين دعا بذلك أقبلت دعوته تحف بالعرش . . . فقالت الملائكة . . . عليهم السلام . . . هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . . . فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ . . قالوا : يا رب من هو ؟ . . قال : ذلك عبدي يونس . . .

قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة . . .
يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء . . . فتنجيه من البلاء ؟ . . .
قال : بلى . . . فأمر الحوت فطرحه . . .

وذلك قوله تعالى :

« ونجيناه من الغمّ » أي الذي ناله حين التقمه الحوت ... بأن قذفه إلى الساحل . . .

وعن قتادة أنه بقي في بطنه ثلاثة أيام . . . وهو الذي زعمته اليهود ...

وعن جعفر الصادق . . . رضي الله تعالى عنه . . . أنه بقي سبعة أيام ...

وروى ابن أبي حاتم . . . عن أبي مالك . . . أنه بقي أربعين يوماً . . .

وقيل : المراد بالغم غم الخطيئة . . . وما تقدم أظهر . . .

والاستجابة عبارة عن قبول توبته . . . عليه السلام . . . والتنجية زيادة إحسان على مطلوبه . . .

« وكذلك » أي مثل ذلك الانجاء الكامل . . .

« نُنجي المؤمنين » من غموم دعوا الله تعالى فيها بالإخلاص لا إنجاء أدنى منه . . .

وقرىء : (نُنَجّي) . . .

وقرىء : (نُجّي) . . .

* * *

وقال النخجواني :

« و » اذكر يا أكمل الرسل أخاك . . .

« ذا النون » صاحب الحوت . . . هو يونس . . . عليه السلام ... وقت . . .

« إذ ذهب مغاضباً » على قومه مراغماً لهم . . . حين وعظهم فلم يتعظوا . . . فشق عليه الأمر . . . فغضب عليهم . . . فلم يكظم غيظه . . . فدعا عليهم . . . وبعدما ظهر إماراته . . . خرج من بينهم تفريجاً لغضبه وتوسيعاً لصدره . . .

« فظنّ » بخروجه من بينهم . . .

« ان لن نقدر عليه » وعلى تضييقه وتغميمه . . . ولا يمكننا حبسه في مكان آخر . . . فهرب من بينهم ولقي البحر فركب على السفينة . . . فسكنت الريح فقال البحارون أن فيها عبداً آبقاً . . . فاقترعوا . . . فخرجت القرعة باسمه . . . فألقى نفسه في البحر . . . فالتقمه الحوت على الفور ...

« فنادى » وناجى صريحاً صريعاً فجيعاً مغموراً . . .

« في الظلمات » التي قد تراكمت عليه . . . إذ هو في بطن الحوت ... والحوت في الماء . . . وكان الليل مظلماً . . .

« أن » أي أنه . . .

« لا إله » يعبد بالحق . . . ويستحق للعبادة استحقاقاً ذاتياً ووصفياً . . .

« إلاّ أنت » يا من خضعت لك الرقاب . . . وانتكست دون سرادقات جلالك أعناق ذوي النهى والألباب . . .

« سبحانك » ربي . . . أنزهك عن جميع ما لا يليق بشأنك . . . ولا ينبغي بجنابك . . .

« إني » بواسطة خروجي من بين قومي . . . بغير اذنلك ووحيك إليّ . . . مع أنك قد أرسلتني إليهم . . . وبعثتني أنت بفضلك بين أظهرهم نبياً ذا دعوة وهداية قد . . .

« كنت من الظالمين » الخارجين عن مقتضى حكمك وأمرك . . . لذلك ضيقت عليّ يا ربي . . .

وبعدما تاب إلينا قادماً . . . ورجع نحونا مخلصاً متضرعاً . . . واستخلص منا مضطرباً مضطراً . . .

« فاستجبنا له » وأجبنا دعاءه . . . فأخرجناه من بطن الحوت . . .

« ونجيناه من الغم » العظيم . . . والكرب الكبير . . .

« وكذلك نُنجي » عموم . . .

« المؤمنين » المخلصين . . . الذين قد أخلصوا في انابتهم ورجوعهم نحونا . . . من عموم كروبهم وأحزانهم . . .

﴿ إشعاعات ﴾

التقم الحوت يونس . . .

فكيف كانت أحاسيسه . . .

وكيف عاش داخل الحوت ؟ !

وكم كان يبلغ حجم ذلك الحوت ؟ !

وكم مكث يونس في بطن الحوت ؟ !

وهل كان يظن أنه سوف يخرج من بطنه ؟ !

وهل كان يظن حين ابتلعه الحوت أنه سوف يبقى حيّاً بداخله ؟ !

وهل هذا الأمر كان معجزة أو أنه يمكن تكراره في غير يونس ؟ !

وهل انفرد يونس بتلك الواقعة أو أن هناك من الأنبياء من حدث له أن التقمه الحوت ؟ !

وهل كان الحادث عقوبة . . . أو تربية . . . أو درجات ؟!

وأسئلة كثيرة كثيرة . . . ثم نقول :

ما كان يظن يونس . . . بل لم يخطر على باله أنه سوف ينجو من الهلاك . . . بل تأكد عنده أنه هالك لا محالة . . .

ومن هنا كانت المفاجأة .... فوجىء يونس ببقائه حيّاً رغم أن النواميس تحتم هلاكه . . .

فأدرك يونس أن الله يفعل به أمراً خارقاً . . . وأنه تعالى سوف يجعله آية للعالمين . . .

ومن قبل فوجىء يونس بالتقام الحوت له حين ألقى بنفسه إلى الماء . . . حيث لم يخطر على باله أن هناك حوتاً يترصده ليلتقمه بمجرد هويه إلى الماء ! !

ومفاجأة أخرى . . . أنه حين هرب إلى يافا واستقل السفينة . . . لينجو من الهلاك الذي سينزل بقومه كان يظن أن في ذلك نجاته . . . ففوجىء بأن ما ظنه نجاة له . . . قد تحول إلى هلاك محقق له حين حتمت القرعة أن يُلقى إلى البحر . . .

وأمّا هل انفرد يونس بتلك الواقعة واقعة التقام الحوت له من بين سائر الأنبياء ؟ . . .

فالذي نعلمه مما قصّ علينا كتاب الله . . . أنه انفرد بتلك الواقعة الفذّة . . . حيث لم نسمع أن نبياً حدث له ما حدث ليونس . . .

ومثل هذه الأمور لا بد فيها من الوقوف عند النصوص السماوية . . .

أما كيف كانت أحاسيسه وهو يدخل بطن الحوت ؟ !

الله أعلم . . . وإنما يمكن أن نقول أنه استسلم لقضاء الله فيه . . . عسى أن يعفو الله عنه . . .

أما كيف عاش داخل الحوت ؟ !

الأمر معجزة . . . ولا يقال في المعجزة كيف . . . وإنما يقال : إن الله على كل شيء قدير ! ! !

فلو اجتمعت الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً . . . على أن يُبقوا على إنسان حياً في بطن الحوت . . . مدة ثلاثة أيام . . . أو سبعة . . . أو أربعين يوماً — على خلاف في الروايات — ما استطاعوا . . .

وكيف يستطيعون والنواميس الطبيعية تحتم أن يتحول يونس إلى عصارات داخل أمعاء الحوت ؟ !

ثم إن هذا الحوت كائن لا عقل له . . . حتى يمكنك أن تقول له : لا تهضم يونس . . . بل أبقه حياً ! ! !

أما كيف عاش داخل الحوت ؟ !

فالأمر هنا أمر معجزة كذلك . . . فلو أخذنا بوسطى الروايات وهي أنه مكث سبعة أيام بلياليهن في بطن الحوت . . . فهذه المدة تحتم أن يطعم فيها يونس ويشرب وإلا ّ لهلك جوعاً . . .

ثم مَن طعم وشرب تحتم أن يقضي الحاجة . . .

فهل كان يأكل يونس ويشرب ويقضي الحاجة ككل كائن حي ؟ !

ثم لا بد للكائن الحي من التنفس فكيف كان يتنفس ؟ !

لا تستطيع أن تقطع بأمر من الأمرين : هل كان يونس يحيا حياة طبيعية بكل لوازمها وهو في بطن الحوت ؟ ! . . . أو أمسك الله عليه حياته . . . بمحض القدرة بدون حاجة إلى لوازم الحياة المألوفة ؟ !

إن كانت الأولى وهي أنه كان يحيا حياة طبيعية وهو في بطن الحوت .. فهذا لا يتحقق إلاّ بقدرة الله . . . فهو وحده الذي يملك ذلك . . .

و إن كانت الثانية وهي أن الله أحياه بقدرته بدون الحاجة إلى الطعام والشراب . . . فإنها أيضاً معجزة . . . والمعجزة أمر من صنع الله ! ! !

وأمّا كم كان حجم ذلك الحوت ؟ !

فالله أعلم . . . وأكبر ظني أنه كان حوتاً عظيماً . . . يناسب ما سوف يجري في داخله من أمر خطير . . . وهو حبس نبي من أنبياء الله . . .

أمّا كم مكث بداخله ؟ !

فعند أهل الكتاب ثلاثة أيام وثلاثة ليالٍ . . .

وعند الرواة . . . سبعة . . . وبعضهم يبلغ بها الأربعين . . .

والذي أرجحه أنها سبعة أيام . . . لأن السبعة لها أسرار كثيرة .

أمّا هل كان الحادث عقوبة . . . أو تربية . . . أو درجات ؟ !

فأقول : كل أولئك كان . . .

فهو عقوبة . . . لأنه لا ينبغي لنبي . . . أن يذهب عن قومه . . . إلاّ إذا أذن الله له في ذلك . . .

وهو تربية . . . لأن الأنبياء هم أعلى مستوى من الآدميين . . . فيتحتّم أن تكون أساليب تربيتهم أشد من أساليب سائر الناس . . .

لأنهم أئمة الناس . . . والمثل العليا للآدميين . . .

فإذا رباهم ربهم رباهم بما لا يحتمله أحد سواهم . . .

« أدبني ربّي فأحسن تأديبي » ! ! !

وهو درجات كذلك . . . لأن العقوبة أدّت إلى التوبة . . .

التربية أدت إلى الترقي . . .

فلما تاب يونس . . . ترقى . . .

ولما ترقى . . . ارتفع إلى درجات عُلى ! ! !

وهاهنا يجب الحذر كل الحذر . . . فلا يظن مغفل من الناس . . . أن يونس كان عاصياً بمعنى المعصية . . .

كلا . . . وإنما هو تأول فأخطأ . . .

فأعطاه الله درساً . . . علمه ما لم يكن يعلم . . .

وردّه إلى قومه . . . فكانت المفاجأة أن وجدهم جميعاً مؤمنين . . .

فلو صبر . . . ولم يخرج من بينهم . . . ورأى توبتهم ورفع العذاب عنهم . . . لعلم أنه ما كان له أن يتسرع ويخرج عنهم ! ! !

اسم ...

اللّٰه ...

الاعظم ..؟!

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« دعوةُ ذي النّونِ إذ دَعا وهو في بطنِ الحوتِ .

« لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانكَ إني كنتُ منَ الظالمينَ .

« فإنّه لم يدْعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطّ إلاّ استجابَ اللهُ لهُ » .

(أخرجه الترمذي في صحيحه)

وسمعنا في الفصل السابق قول القائل « وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن ، **أن ذلك اسم الله تعالى الأعظم** » .

وبالغوص في أعماق البحر نستنبط أمراً عجبا :

١ — الله جل جلاله يقول في كتابه العظيم :

« . . . فنادى في الظلمات أن لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانكَ إني كنتُ منَ الظالمينَ . فاستجبْنا لهُ ونجّيْناهُ من الغمّ وكذلكَ نُنجي المؤمنينَ » .

فنفهم أن يونس عليه السلام نادى وهو في بطن الحوت وهذه ظلمة ، والحوت في بطن الماء وهذه ظلمة ، والماء في بطن الليل وهذه ظلمة ثالثة ...

انظر . . . « فنادى . . . فاستجبنا »

بمجرد أن نادانا . . . استجبنا له ! ! !

ثم ماذا ؟ . . .

٢ ــ الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« دعوة ذي النون . . . إذ دعا وهو في بطن الحوت . . . لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . . . فإنه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له » ! ! !

فنفهم عجباً ! ! ! . . . تطابق الوَحْيان . . . كلام الله المنزل في كتابه . . . وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . . .

الله يقول : « فاستجبنا له » ورسوله يقول : « إلاّ استجاب الله له » .

والله يقول : « وكذلك نُنجي المؤمنين » . . . ورسوله يقول : « لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له » ! ! !

٣ ــ الحسَن رضي الله تعالى عنه يقول : أن ذلك اسم الله تعالى الأعظم ! ! !

وهو فقه رفيع عظيم من الحسن . . .

تشعشع من كلام الله . . . وكلام رسول الله . . .

ففهمنا أن نداء يونس . . . لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . . . هو اسم الله الأعظم . . . الذي إذا نُودي به أجاب . . . وإذا دُعي به استجاب . . . وإذا سُئل به أعطى . . .

٤ ــ قال تعالى : « وكذلك نُنجي المؤمنين » . . . وقال رسوله صلى الله عليه وسلم : « لم يدعُ بها رجل مسلم » . . . فزادنا صلى الله عليه وسلم رحمة إلى رحمة . . . وفتح أمامنا أملاً إلى أمل . . .

في الآية شرط الإيمان هو الذي يحقق الاستجابة . . .

وفي الحديث مجرد الإسلام . . . يحقق الرجاء والاستجابة . . . ومعلوم أن الإسلام مرحلة أدنى من الإيمان . . .

عجائب تتلألأ هاهنا وهاهناك . . .

ثم ماذا ؟ ! . . . نقول إن يونس عليه السلام تحقق في ندائه . . . كل الأمواج العليا . . . التي تصعد رأساً إلى الله ليس بينه وبينها حجاب . . .

الافتقار . . . فلا أحد مفتقر إلى ربه أكثر من رجل في بطن حوت والحوت في بطن البحر والبحر في بطن الليل . . .

والانكسار . . . فقد كان في غاية الانكسار حيث لا يعلم أحد من الخلق عنه شيئاً . . .

والاضطرار . . . وأي اضطرار هو أشد من اضطرار من هو في بطن الحوت ؟ ! !

والغربة . . . فهو في منزل غريب لم يدخله إنسان . . . في أعماق البحار التي لم يعش فيها إنسان . . . في ظلمات ليل بهيم تحت أعماق الماء . . .

الانفراد . . . فهو في مقام ينفرد فيه عن سائر الأنبياء . . . فلم يختبر نبي قط بالتقام الحوت له والغوص به تحت أعماق البحر ... وهذا البلاء الشديد انفرد به يونس . . . ففجّر منه موجة قدسية . . . لها ذبذبات وتموجات لم تحدث قبله . . . فصعدت إلى الله جديدة في نوعها . . . فريدة في تموجها . . .

تقطّع الأسباب . . . حيث كان يونس عليه السلام . . . فاقداً لجميع الأسباب . . . فلا سبب له البتّة . . . فإن من كان في بطن حوت . . .

في بطن بحر . . . في بطن ليل . . . لا سبب له يتجه إليه . . . ولا يستطيع . . . فهو أعجز من الجنين في بطن أمه . . . لأن الجنين له أسباب كثيرة . . . هي تأقلمه مع أحشاء أمه فهو يتغذى منها وينمو بداخلها . . . أما يونس فلا تأقلم بينه وبين كائن مخالف له تماماً . . . فهو في انقطاع تام عن الأسباب . . . وإذا تقطعت الأسباب تماماً . . . كان النداء حاراً فوّاراً ! ! !

نقول إن لكل بلية تصيب الإنسان . . . ثمرة تناسب نوع البلية . . .

فصراخ المصاب بالسرطان — أعاذنا الله — موجة لها ذبذبات تختلف عن صراخ المصاب بكسر في الساق مثلاً . . .

كذلك المصائب والبلايا والاختبارات الإلهية لعباده . . .

المراد منها أن تستخلص من المؤمنين اصطراخهم إلى ربهم . . .

فتتموج منهم موجات نورية . . . هي ما يخرج منهم من توجهات ودعوات ونداءات وتأوهات وصرخات وأنين . . .

وكل نداء يختلف عن الآخر صدقاً وقوة واندفاعاً وحرارة . . .

فدعاء الأنبياء عند وقوع البلاء بهم . . . أعلى وأرقى وأخلص من دعاء الصديقين . . .

ودعاء الصديقين أعظم وأسرع من دعاء الشهداء . . .

ودعاء الشهداء أشد اندفاعاً من دعاء الصالحين . . .

ودعاء الصالحين دون دعاء هؤلاء . . .

بل إن الشخص الواحد يختلف منه دعاء عن دعاء . . . حسب حاله من الشدة أو الرخاء . . . والتوجه أو الإعراض . . .

فإذا نظرنا إلى حال يونس عليه السلام . . . وجدنا نبياً رسولا ظنّ

أن لن يَقْدِر الله عليه . . . لن يُضيق عليه . . . لن يؤاخذه بما فعل . . .

ففوجىء بتحتّم القرعة عليه . . . فتحتّم إلقاؤه إلى البحر . . . فتحتّم التقام الحوت له . . . فتحتّم هلاكه في بطن هذا الحوت . . . فتحتّم أنه لن يخرج من بطنه أبداً

« لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يُبعثون » ! ! !

ثم فوجىء أنه حيّ في بطن الحوت . . . ثم فوجىء بإيقاف النواميس الطبيعية بالنسبة إليه . . . فلا الحوت يهضمه ولا هو يتحول إلى عصارات ... ثم فوجىء بمكثه أياماً بلياليهن داخل الحوت . . . يهوي به إلى الأعماق . . . ويرتفع به إلى السطح . . . ويجري به إلى بقاع لم يشهدها قط . . .

هنالك . . . حيث فوقه ملايين الأطنان من الماء . . . هي كمية المياه التي هو في أسفلها وقاعها . . . كان النداء . . . لا إله إلاّ أنت . . . سبحانك . . . إني كنت من الظالمين . . .

فخرجت منه إلى ربه رأساً . . .

وشقّت الحجب . . . وزحزحت الأغيار . . . وفجّرت الأنوار . . .

فيها ما لا يعلمه إلاّ الله من أمواج التوحيد العُلى . . .

فيها الافتقار . . . فيها الانكسار . . . فيها الاضطرار . . . فيها الغربة . . . فيها الانفراد . . . فيها تقطع الأسباب . . .

فيها صراخ نبي إلى ربه . . .

ونداء الأنبياء أعلى من السماء . . .

« فنادى في الظلمات » . . . « فاستجبنا له » . . . فوراً . . .

بل أسرع من فوراً . . .

فكيف كانت الاستجابة أسرع من فوراً ؟ ! !

فنبذناه ...

بالعراء ...؟!

قال تعالى :

« فنبذناهُ بالعَراءِ . . .

« وهو سَقيمٌ » .

(الصافات ١٤٥)

« فنبذناه » بأن حملنا الحوت على لفظه . . .

والنبذ : طرحك الشيء أماماً أو وراء أو هو عام . . .

وقال الراغب : النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به . . . والمراد هنا الطرح والرمي . . .

قالوا : والقيد الذي ذكره الراغب لا أرغب فيه . . . فإنه عليه السلام وإن أبق وخرج من غير إذن مولاه . . . واعتراه من تأديبه تعالى ما اعتراه . . . فالرب عز وجل بأنبيائه رحيم . . . وله سبحانه في كل شأن اعتداد بهم عظيم . . . فهو عليه السلام معتد به في حال الإلقاء وإن كان ذلك . . .

« بالعراء » أي بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت . . .

« وهو سقيمٌ » مما ناله . . .

قال ابن عباس . . . والسدي : إنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد . . .

وعن ابن جبير : أنه عليه السلام ألقي ولا شعر له ولا جلد ولا ظفر . . .

ولعل ذلك يستدعي بحكم العادة أن لمدة لبثه في بطن الحوت طولاً ما . . .

أما النخجواني فيقول في تفسيره :

« فنبذناه » وطرحناه من بطنه . . .

« بالعراء » أي البادية الخالية عن مطلق الغطاء والغشاء الذي يظله من شجرة . . . وغيرها . . . عناية منا إياه . . . ونجاة له . . . وذلك بأن ألهمنا الحوت أولاً حين سقوطه في البحر بالتقامه . . . فالتقمه بلا لحوق ضرر من الماء . . . ثم ألهمناه أن يخرج رأسه من الماء حتى يتنفس هو في بطنه إلى أن يبلغ الساحل . . . قيل لبث في بطنه يوماً . . . أو بعض يوم . . . وقيل ثلاثة أيام . . . أو سبعة وعشرين . . . أو أربعين . . . فلما بلغ الساحل أخرجه الحوت من بطنه . . . ولفظه الموج إلى الساحل العاري عن الظل . . . والشمس في غاية الحرارة . . .

« وهو » حينئذ . . .

« سقيم » ضعيف . . . قد صار بدنه كبدن الطفل حين يولد . . .

﴿ إشعاعات ﴾

في هذه الآية أغوار وأنوار وأسرار وأنهار وبحار . . .

فنبذناه . . . نحن الله . . . أمرنا الحوت أن الفُظْه فلفَظَه . . .

في مكان حدّدناه للحوت . . . فنبذه فيه . . . لم يجاوز . . .

كأن لسان القدرة يقول :

أيها الحوت . . . كما أمرناك أن تلتقمه فالتقمته . . .

وكما أمرناك أن تحتفظ به في بطنك حيّاً لا تمسسه بسوء . . .

إنّا نأمرك أن تنبذه بالعراء . . .

حيث لا ظل . . . ولا شجر . . . ولا شيء يلوذ به من أذى الشمس . . .

كما حفظناه في بطن الحوت . . .

نحن نحفظه ونتولاه في العراء ! ! !

وخرج يونس إلى الحياة الدنيا مرة أخرى . . .

بعد أربعين يوماً قضاها في بطن الحوت . . . وهو يجوب به البحار . . .

خرج يونس من سجنه الرهيب العجيب . . . كائناً آخر غير يونس الذي التقمه الحوت . . .

يونس الذي التقمه الحوت كان هارباً . . . فقُبِض عليه . . . وأُدخل إلى أشد سجن في العالم ظلاماً ووحشة وعذاباً . . .

إنه بطن الحوت . . . وماذا في بطن الحوت إلاّ الظلمات ؟ ! !

أما يونس الخارج الآن من بطن الحوت . . . فإنه يستقبل الحياة الدنيا مرة أخرى . . . وقد أدَّبه ربه فأحسن تأديبه . . .

إنه الآن قد ترقّى رقياً عظيماً . . .

فلا ذهاب عن قومه بغير إذن . . .

ولا اجتهاد برأيه فيما غاب عنه علمه . . .

وإنما سِلم واستسلام لأمر ربه . . .

دخل يونس إلى الحوت « وهو مُليمٌ » يلوم نفسه لوماً شديداً على ما كان عليه . . .

يونس الخارج الآن من بطن الحوت . . . يشعر بالمنّة . . . والعطاء . . . والحنان . . . والرحمة . . . والاجتباء . . .

ولننظر كيف كانت العناية به وهو سقيم . . . ضعيف . . . في العراء؟

وأنبتنا عليه ...

شجرة ...

من يقطين ..؟!

قال تعالى :

« وأنبتنا عليه شجرة من يقطين » .

(الصافات ١٤٦)

أي أنبتناها مطلة عليه . . . مظلة له كالخيمة . . .

والمراد به على ما جاء عن الحسن السبط . . . وابن عباس في رواية ... وابن مسعود . . . وأبي هريرة . . . وعمرو بن ميمون . . . وقتادة . . . وعكرمة . . . وابن جبير . . . ومجاهد في إحدى الروايتين عنهما . . . الدباء . . . وهو القرع المعروف . . . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ...

وأنبتها الله تعالى مطلة عليه . . . لأنها تجمع خصالاً . . . برد الظل والملمس . . . وعظم الورق . . .

وكان عليه السلام لرقة جلده بمكثه في بطن الحوت يؤذيه الذباب . . . ومماسة ما فيه خشونة ويؤلمه حر الشمس . . . ويستطيب بارد الظل . . . فلطف الله تعالى به بذلك . . .

واشتهر أن الشجر ما كان على ساق من عود فيشكل تفسير الشجرة هنا بالدباء . . .

وأجاب أبو حيان بأنه يحتمل **ان الله تعالى أنبتها على ساق لتظله خرقاً للعادة . . .**

وأخرج ابن جرير عن ابن جبير أنه قال : كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين . . . والذي يكون على وجه الأرض من البطيخ والقثاء . . .

وفي رواية أخرى عنه . . . أنه سئل عن اليقطين أهو القرع ؟ . . . قال : لا . . . ولكنها شجرة سماها الله تعالى اليقطين أظلته . . .

وقيل شجرة اليقطين هي شجرة الموز . . . تغطي بورقها . . . واستظل بأغصانها . . . وأفطر على ثمارها . . .

وفي بعض الآثار أنها نبتت وأظلته في يومها . . .

أخرج أحمد في الزهد . . . وغيره . . . عن وهب . . . أنه لما خرج من البحر نام نومة . . . فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين . . . وهي الدباء . . . فأظلته . . . وبلغت في يومها . . . فرآها قد أظلته ورأى خضرتها فأعجبته . . ثم نام نومة فاستيقظ . . . فإذا هي قد يبست . . . فجعل يحزن عليها ... فقيل له : **أنت الذي لم تخلق . . ولم تسق . . ولم تنبت ... تحزن عليها. . . وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون . . . ثم رحمتهم . . . فشق عليك ؟ ! . . وهؤلاء هم أهل نينوى . . .**

ثم ماذا ؟ ! . . . ثم ماذا قال النخجواني :

« و » بعد ما لم يكن له متعهد . . . وليس هناك مظلة . . . لا شيء يحفظه من الحر والذباب قد . . .

« أنبتنا عليه » في الحال . . . من كمال رحمتنا إياه . . . وعطفنا معه . . .

« شجرة من يقطين » وهي شجرة . . . تنبسط على وجه الأرض . . . ولها أوراق عظام . . . بلا ساق تقوم عليه . . . قيل هي الدباء . . . فغطيناه بأوراقها . . . وربيناه بظلها . . . إذ ظلها من أحسن الأظلال وأكرمها هواء . . . وألهمنا أيضاً إلى وعلة وهي المعز الوحشي حتى جاءت وحضرت عنده صباحاً ومساء . . . وهو يشرب من لبنها إلى أن قوي وتقوم مزاجه على الوجه الذي كان عليه . . .

﴿ إشعاعات ﴾

اللطيفة التي تفجّرت من النخجواني . . . ذلك الإمام الرباني . . . في تفسيره للآية هي قوله :

« أنبتنا عليه » في الحال ؟ ! !

في الحال ؟ ! ! !

هاهنا المفتاح الجميل الجليل . . .

يونس كما ولدته أمه . . . في مكان يخلو من آثار الحياة . . . فلا ماء ولا طعام ولا ظل ولا أحد من إنس معه . . .

ليته كان طبيعياً . . . ولكن « وهو سقيمٌ » . . . عليل ضعيف في أمسّ الحاجة إلى ظل يأوي إليه . . . وإلى طعام يطعمه . . . وإلى ماء يرويه . . . وإلى شيء يستره عن أعين أي إنسان ربما مرَّ عليه عابراً . . .

كان يونس . . . وحده . . . ليس معه إلاّ الله . . .

وكانت أسبابه منعدمة تماماً . . .

وقواه قد ذهبت عنه . . .

إنه في حاجة إلى غوث . . . أسرع غوث . . .

فأغاثه الرحيم الودود . . .

فوراً . . . نبتت شجرة . . . فوراً أ، رقت . . . فمدّت ظلالها عليه ... فاستظل بظل ظليل . . .

فوراً أثمرت . . . وتدلـّت ثمارها عليه . . . فتناول وأكل طعاماً لذيذاً...

وفوراً جاءت وَعْلة . . . فحلب من لبنها وشرب . . .

مكث يونس هكذا في جنّة قطوفها دانية . . . ما شاء الله له أن يمكث . . .

فلما استكمل عافيته . . . وعاد أحسن مما كان قبل أن يدخل بطن الحوت . . .

نام نومة ما . . . ثم استيقظ . . . فكانت المفاجأة . . . أن رأى الشجرة وقد يبست تماماً . . . فعلم أنها يبست في لحظة . . . كما نبتت في لحظة . . .

كوني شجرة . . . فكانت . . .

كوني عوداً جافاً . . . فجفّت . . .

فاشتد حزنه على يبسها . . .

فكانت الإشارة إليه : أنت الذي لم تخلق ولم تسق ولم تنبت تحزن عليها.. وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشقّ عليك؟!!

ففهم يونس ما لم يكن يفهم . . .

وعلم ما لم يكن يعلم . . .

ثم صدر إليه الأمر الإلهي . . .

فماذا كان ذلك الأمر ؟ ! !

وأرسلناه ...

الى مائة ألف ...

أو يزيدون ..؟!

قال تعالى :

« وأرسلناهُ إلى مائةِ ألفٍ أوْ يزيدُونَ .

« فآمنوا فمتّعْناهُم إلى حينٍ » .

(الصافات ١٤٧ و ١٤٨)

« وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » والإرسال على ما أخرج غير واحد عن مجاهد والحسن وقتادة هو الإرسال الأول الذي كان قبل أن يلتقمه الحوت . . . فالعطف على قوله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين) الخ . . . على سبيل البيان لدلالته على ابتداء الحال وانتهائه . . . وعلى ما هو المقصود من الإرسال من الإيمان . . . واعترض بينهما بقصته اعتناء بها لغرابتها . . .

« فآمنوا » أخلصوا الإيمان وجددوه . . . لأن الأول كان إيمان بأس . . .

و (أو) على ما نقل عن ابن عباس بمعنى بل . . .

وقال ابن كمال : المراد يزيدون باعتبار آخر . . . وذلك أن المكلفين بالفعل منهم كانوا مائة ألف . . . وإذا ضم إليهم المراهقون الذين بصدد التكليف كانوا أكثر . . . ومن ههنا ظهر وجه التعبير بصيغة التجـــدد دون الثبات . . .

وقيل : بمعنى الواو . . . وبها قرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما .

وقيل : للابهام على المخاطب . . .

وقال المبرد : للشك نظراً إلى الناظر من البشر . . . على معنى من رآهم شك في عددهم وقال مائة ألف أو يزيدون . . .

والمقصود بيان كثرتهم . . . أو أن الزيادة ليست كثيرة كثرة مفرطة ... كما يقال هم ألف وزيادة . . .

وأخرج الترمذي . . . وابن جرير . . . وابن المنذر . . . وابن أبي حاتم . . . وابن مردويه . . . عن أبي بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) . . **قال : يزيدون عشرين ألفاً . . .**

وإذا صح هذا الخبر بطل ما سواه . . .

« فمتعناهم » بالحياة . . .

« إلى حين » إلى آجالهم المسماة في الأزل . . .

وقال النخجواني :

« و » بعدما ربيناه كذلك . . .

« أرسلناه » مرة أخرى . . .

« إلى مائة ألف أو يزيدون » أي في بادي الرأي والنظر . . . يعني قد حكم الناظر عليهم على سبيل الظن والتخمين بأنهم مائة ألف أو أكثر ... وهؤلاء الذين قد أرسل إليهم أولاً وهرب منهم . . . وهم أصحاب نينوى . . .

« فآمنوا » له وقبلوا منه دعوته . . . بعد أن أرسل إليهم ثانياً . . .

« فمتعناهم » مؤمنين مصدقين موحدين . . .

« إلى حين » أي إلى انقضاء آجالهم . . .

﴿ إشعاعات ﴾

ما سرّ قوله تعالى « أوْ يزيدونَ » ؟ !

السر عجيب . . . ويتلألأ من اختيار صيغة المضارع والجمع . . . بما يفيد التجدد . . .

يزيدون ؟ ! !

مائة ألف . . . يزيدون ؟ !

باعتبار أنّ « أو » بمعنى بل ... أو بمعنى الواو ... أي ويزيدون !!!

هل فهمت . . .

مائة ألف بل يزيدون . . .

مائة ألف . . . ويزيدون ؟ ! !

أي سوف يزيدون . . . ثم يزيدون . . . ثم يزيدون . . . إلى ما شاء الله ؟ !

كيف يحدث هذا الاستمرار . . . والتجدد . . . والزيادة . . .

بالقانون الطبيعي . . . قانون التناسل . . . والتكاثر . . .

الله أكبر ! ! ! . . . فتحت الآية . . . فضلاً من الله ومِنّة ! ! ! فالمعنى إن شاء الله يكون . .

هؤلاء المائة ألف . . . سكان مدينة نينوى . . . هم الآن مائة ألف . . .

وهم بمرور الأجيال . . . وتعاقب الأزمان . . . سوف يتكاثرون . . . ويبلغون ملايين من البشر المؤمنين . . .

من أجل ذلك أبقينا عليهم . . . وأرسلناك إليهم يا يونس . . . فلا تنظر إليهم الآن . . . ولكن انظر إليهم على مدى الزمان . . . وهم يزيدون . . . ويزيدون . . .

فتنشأ أجيال منهم وأجيال . . .

والجميع يؤمنون بربهم . . . ويوحدونه . . . ويكبرونه . . .

« فآمنوا » . . . جميعاً . . . وآمن أولادهم من بعدهم جميعاً . . . ثم أحفادهم . . . وهكذا . . .

«فمتعناهم » هم جميعاً ... ومتعنا ذرياتهم من بعدهم ... بحياة الإيمان.. ونعمة التوحيد . . .

« إلى حين » إلى امتداد تسلسلهم . . . جيلاً بعد جيل . . .

فالمائة ألف . . . يزيدون إلى ملايين . . . على مدى أجيال متعاقبة . . .

فانظر يا يونس . . . حكمتنا البالغة . . .

انظر بالعين الكلية . . . ولا تنظر بالعين الجزئية . . .

نظرت إليهم على أنهم أهل مدينة رفضوا دعوتك . . . فغضبت عليهم . . . وذهبت عنهم . . .

ونحن نعلم ما لا تعلم . . .

نعلم أنهم سوف يؤمنون . . . وسوف يخرج من أصلابهم ملايين تؤمن بالله ورسوله . . .

من أجل ذلك أرسلناك إليهم مرة أخرى . . . لتشهد بنفسك إيمانهم جميعاً . . . وتقرّ عينك بتحقق الإيمان منهم جميعاً ! ! !

ولا تكن ...

كصاحب ...

الحوت .. ؟!

قال تعالى :

« فاصبرْ لحُكْمِ ربّكَ ولا تكُن كصاحِبِ الحُوتِ إذْ نادى وهو مكْظُومٌ .

« لوْلا أن تَدارَكَهُ نِعمةٌ مِن ربّهِ لنُبِذَ بالعَرَاء وهو مذْمومٌ .

« فاجْتَبَاهُ رَبّهُ فجعَلَهُ مِنَ الصّالحينَ » .

(سورة القلم ٤٨ — ٥٠)

« فاصبر لحكم ربك » وهو إمهالهم . . . وتأخير نصرتك عليهم . . .

روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض عليه الصلاة والسلام نفسه على القبائل بمكة فنزلت . . .

وقيل أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو على الذين انهزموا بأحد حين اشتد بالمسلمين الأمر فنزلت . . وعليه تكون الآية مدنية . . .

« ولا تكن كصاحب الحوت » هو يونس عليه السلام . . .

كما أنه المراد من ذي النون . . .

إلاّ أنه فرق بين ذي وصاحب . . .

بأن ذي أبلغ من صاحب . . .

قال ابن حجر لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها بخلافه . . . ومن ثم قال سبحانه في معرض مدح يونس عليه السلام (ذا النون) . . . والنهي عن اتباعه (ولا تكن كصاحب الحوت) . . . إذ النون لكونه جعل فاتحة سورة أفخم وأشرف من لفظ الحوت . . .

« إذ نادى » في بطن الحوت . . .

« وهو مكظوم » أي مملوء غيظاً على قومه إذ لم يؤمنوا لما دعاهم إلى الإيمان . . . .

والجملة حال من ضمير نادى . . . وعليها يدور النهي . . . لا على النداء . . . فإنه أمر مستحسن . . .

أي لا يكن حالك كحاله وقت ندائه . . .

أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة . . . فتبتلي بنحو بلائه عليه السلام . . .

« لولا أن تداركه نعمة من ربه » وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه . . . وقرأ عبد الله ابن عباس . . . تداركته . . .

وقرأ ابن هرمز والحسن والأعمش . . . تدّاركه . . . بتشديد الدال .

« لنُبذ بالعراء » بالأرض الخالية من الأشجار . . . أي في الدنيا . . .

« وهو مذموم » المقصود امتناع نبذه مذموماً . . . فقد حصل النبذ يدل على أن حاله كانت على خلاف الأم . . .

« فاجتباه ربه » فتداركته نعمة من ربه فاجتباه . . . أي اصطفاه . . . بأن ردّ عز وجل إليه الوحي وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون . . .

وقيل استنبأه . . . إن صح أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعة . . . وإنما كان رسولاً لبعض المرسلين في أرض الشام . . .

« فجعله من الصالحين » من الكاملين في الصلاح . . . بأن عصمه سبحانه من أن يفعل فعلاً يكون تركه أولى . . .

قيل . . . وفسر الصالحين بالأنبياء . . . وهو مبني على أنه لم يكن قبل الواقعة نبياً . . .

أي فجعله من الأنبياء . . .

ثم ماذا ؟ ! . . . ماذا عند النخجواني . . . ذلك الإمام الرباني ؟ !

« فاصبر » أنت يا أكمل الرسل . . .

« لحكم ربك » وهو تأخير نصرتك عليهم . . . وإمهالهم زماناً على حالهم . . . ولا تستعجل في مؤاخذتهم . . .

« ولا تكن » في الاستعجال . . .

« كصاحب الحوت » يعني يونس بن متى . . . صلوات الله عليه . . . قد استعجل العذاب لقومه حين بالغوا في العصيان وتكذيبه . . . ثم لما ظهر إماراته خرج من بينهم مغاضباً عليهم . . . حتى اقتحم البحر . . . فساهم في السفينة فكان من المدحضين . . . فالتقمه الحوت وهو حينئذ مُليم نفسه . . . اذكر . . .

« إذ نادى » ربه في بطن الحوت . . .

« وهو حينئذ . . .

« مكظوم » مملوء غضباً وغيظاً . . . مبتل بالبلاء العظيم . . .

« لولا أن تداركه » وأدركته . . .

« نعمة من ربه » يعني لو لم يوفقه سبحانه على نعمة التوبة والإنابة والرجوع إلى الله على وجه الإخلاص والندامة . . .

« لنُبذ » وطرح هو البتة . . .

« بالعراء » أي الأرض الخالية من الشجر . . .

« وهو حينئذ . . .

« مذموم » مُليم . . . مطرود من الرحمة والكرامة . . . لكن قد أدركته العناية الإلهية . . . وانفتح له باب التوبة والاستغفار . . . على وجه الندم والانكسار . . . فاستغفر ربه وتاب عليه واستجاب له تفضلاً وامتناناً ..

« فاجتباه ربه » أيضاً لمصلحة النبوة وقبله . . . فأرسله مرة أخرى إلى قومه . . .

« فجعله » حسب فضله وطوله . . .

« من الصالحين » الكاملين في الصلاح . . . الفائزين بالعصمة والفلاح .. اللائقين لشأن النبوة والهداية والإرشاد والتكميل . . .

﴿ إشعاعات ﴾

« فاصبرْ لحُكْمِ ربّكَ » ؟ ! ! !

ماذا في هذا التوجيه الجميل ؟ !

تريث يا أيها النبي ... وانتظر حُكم ربك ... في القضية التي بينك وبين خصومك . . .

فما هو حُكم الله فيها ؟ !

حُكْمه . أو النواميس الإلهية . . . أو سُنّة الله . . .

أن الصراع يقع بين الحق والباطل . . .

ويستمر الصراع قائماً مدة من الزمان . . . ثم تكون النتيجة الحتمية هي غلبة الحق وهزيمة الباطل . . . —

ولكن بعد زلازل وأزمات واضطهادات وتجويع وتخويف وحروب وفتن . . . وكل أنواع البلايا . . .

فإذا صبر أهل الحق وصابروا . . . واحتملوا وجاهدوا . . . قطفوا في النهاية نتيجة ذلك كله . . . وهو النصر العزيز . . .

« **ولا تكن كصاحب الحوت** » إذ تعجل الأمر . . . وظنّ أن قومه قد حقّ عليهم العذاب . . . ولا فائدة ترجى منهم . . .

ولو قد صبر معهم . . . لشاهد انقلابهم من الكفر إلى الإيمان . . . ولكن تركهم ومضى إلى البحر . . . فقبضنا عليه وحبسناه في سجن رهيب في بطن الحوت . . . فاجتمع عليه غم إلى غم . . . وغيظ إلى غيظ . . . وغضب إلى غضب . . .

«**إذ نادى وهو مكظوم** » مملوء غيظاً على قومه . . . وغيظاً على نفسه أن ألجأها إلى هذا السجن . . . وغيظاً مما هو فيه من ضيق . . .

وعلمناه أن النبي لا ينبغي أن يهجر قومه إلاّ بإذن منّا . . . لأنه لا يدري ما الله فاعل بهم . . . وربيناه أحسن تربية . . .

فلما استكمل آداب النبوة . . . أرسلناه إليهم مرة ثانية . . . ليقودهم إلينا . . . ويوجههم على بصيرة . . . وليعلم أن هؤلاء الذين ظن أنهم هلكى . . . قد نجوا بإيمانهم . . . وتحولوا من الظلمات إلى النور ! ! !

ماذا أريد أن أقول ؟ !

أريد أن أقول أن التخطيط الإلهي . . . أو التقدير بلغة الشريعة . . . يصدر على مستوى الحياة البشرية كلها طولاً وعرضاً . . .

فالبشرية كلها عند الله . . . من آدم إلى أن تقوم الساعة . . . مجموعة واحدة من نوع واحد . . . يُخطط لها ككل . . . على قانون . . . الكل للكل . . .

فالآدميون جميعاً مجموعة واحدة مرتبطة بعضها ببعض . . .

ولا يحيط بهذا التخطيط الكلي إلاّ الله . . . لأنه سبحانه هو الذي قدّر المقادير للبشرية كلها . . .

ومن هنا تحتّم على كل رسول يرسله الله إلى البشرية . . . أن ينتظر أمر الله . . . قبل أن يتجه إلى اتجاه ما . . .

ومن هنا كان وجه المؤاخذة ليونس عليه السلام ... « **فظنّ أن لن نَقْدِرَ عليه** » . . . ظن أنه فعل الصحيح ... حين حرج عن قوم هلكى لا محالة . . . فلا ضرورة للبقاء معهم . . .

بينما التقدير الإلهي أن هؤلاء حين يعاينون العذاب. . . سوف يضجون ويعجون إلى الله . . . وان الله سيرفع عنهم العذاب . . . لتوبتهم وإن كانت توبة بأس . . .

وهذا ما لم يعلمه يونس لأنه لا علم له بالغيب . . . وإنما مدى علمه أنهم معذبون لا محالة . . .

اجتهد يونس . . . فجاء اجتهاده دون الأولى . . .

فجاءه ما لم يخطر على باله . . .

حوت عظيم . . . يلتقمه . . .

سجن مظلم . . . يحيط به . . . فظن ألاّ مخرج له . . . وأنه هالك لا محالة . . .

فنادى . . . ونادى . . . لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..

فقبل الله توبته « ونَجّيْناهُ مِنَ الغَمّ » ... وألقاه الحوت بالعراء ...

وهاهنا إشارة جميلة جداً . . .

كأنه يراد أن يقال . . . ها أنت يا يونس لا أمل لك في النجاة من الهلاك في بطن الحوت . . . فناديتنا فنجيناك . . .

فافهم أن قومك الذين ظننت أنه لا أمل لهم في النجاة من العذاب حين جأروا ونادوا ربهم . . . نجيناهم وكشفنا عنهم العذاب . . .

فمن أولى بالنجاة فرد واحد أم مائة ألف أو يزيدون ؟ !

لماذا فزعت أنت إلينا . . . تطلب النجاة لنفسك . . . ولم تفزع لقومك تطلب لهم النجاة من الهلاك ؟ !

درس ثمين عميق . . .

لماذا أهمتك نفسك . . . فصرخت إلينا تطلب النجاة . . .

ولم تفزع من أجل أهل نينوى . . . وهم أكثر من مائة ألف . . . فتطلب لهم النجاة ؟ !

الناس عند الله سواسية . . .

هو ربهم . . . وهم عبيده . . .

وما أنت يا يونس إلاّ نفس واحدة . . . فاشتد صراخك من أجل نفسك . . . وهي واحدة . . .

ولم يشتد صراخك من أجل مائة ألف وزيادة ؟ ! !

فالآن فاعلم أنك وأنت هارب عنهم . . . قد تابوا وأنابوا واشتد صراخهم . . . فرحمتهم ورفعت عنهم العذاب . . .

ثم ضيّقت عليك أنت . . . وحبستك في بطن الحوت . . .

لتفهم أن الأولى بالنبي أن يبقى بين قومه حتّى يؤذن له منا بالخروج عنهم . . .

ثم أذقتك الضيق والغمّ والغيظ . . . فعلمت ألاّ ملجأ من الله إلاّ إليه . .

وطلبت المخرج من ضيقك . . . لتعلم أنه كان ينبغي أن تطلب المخرج لمائة ألف أو يزيدون . . . فهم أولى بالرحمة وأولى بالغوث . . .

ثم ماذا ؟ ! . . .

ثم أقول إن تجربة يونس في بطن الحوت . . . تجربة رائعة فريدة فذّة ...

فيها بدائع وروائع ولطائف إلهية لا تُحصى . . .

ان الأنبياء إذا اجتهدوا فجاء اجتهادهم دون الأولى . . . نُبّهوا إلى ذلك . . . وسارع الوحي إلى التصحيح . . .

ان الله يعلم ما تكنّ الصدور . . . وقد آخذ يونس بالمكنون في صدره . . . انه يظن أنه سينجو بنفسه . . . فأدخله إلى هلاك محتّم . . .

وأنه ظن أن قومه هلكى بكفرهم . . . فنجوا بإيمانهم . . . عكس ما كان يظن . . .

وأنه ظن أنه هالك لا محالة في بطن الحوت . . . فأخرجه حيّاً من بطن الحوت ! ! !

لطائف لا حصر لها ! ! !

شخصية ...

يونس ...

عليه السلام ..؟!

من سورة الأنبياء . . .

يمكن لنا إن شاء الله . . . استخراج شخصية يونس عليه السلام . . .

فإن المتأمل فيها . . . يتبين له **شيء عجيب** . . .

أن كل نبي جاء ذكره فيها . . . أشارت السورة الكريمة إلى مفتاح شخصيته . . .

فكيف كان ذلك ؟ !

عن موسى وهارون قال :

« ولقد آتينا موسى وهارونَ الفُرقانَ وضياءً وذكراً للمتقينَ » . . .

وعن إبراهيم قال :

« ولقدْ آتينْا إبراهيمَ رُشدَهُ مِن قبلُ وكنّا به عالمينَ » . . .

فعُلم من قوله « وكنا به عالمين »أن إبراهيم شخصية لا تحيط العقول بعظمتها ... وإنما الله وحده هو الذي يعلم من إبراهيم ؟ . . . وما مدى عظمة الحقيقة الإبراهيمية ! ! !

وعن إسحاق ويعقوب قال :

« ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً وكُلاً جعلنا صالحينَ » . . .

فعلم أن إسحاق ويعقوب بلغا الذروة من الصلاح ! ! !

وعن لوط قال :

« ولُوطاً آتيناهُ حُكماً وعِلماً ونجّيناهُ من القريةِ التي كانت تعملُ الخبائثَ إنهم كانوا قومَ سوْءٍ فاسقين .

« وأدخلناهُ في رحمتِنا إنّهُ مِنَ الصالحينَ » .

فعلم أن لوطاً ... كان قمة في الصلاح ! ! !

عن نوح قال :

« ونُوحاً إذ نادى من قبلُ فاستجبْنا لهُ فنجّيناهُ وأهلهُ من الكرْب العظيم » .

فعلم أن نوحاً بلغ الذروة من الكمال حين نادى ربه « **« انّي مغْلوبٌ فانتَصِرْ » ! ! !**

فكانت الاستجابة ... على أعلى ما يمكن أن تكون الاستجابة **« ففتحنا أبوابَ السماءِ بماءٍ منهمرٍ .وفجرّْنا الأرضَ عيوناً فالتقى الماءُ على أمرٍ قدْ قُدِرَ » ! ! !**

وعن داود وسليمان قال :

« ... وكُلاَ آتيْنا حُكماً وعلماً » ...

فعلم أن كلاً من داود وسليمان قد بلغ الذروة من النبوة والعلم بالله ! ! !

وعن أيوب قال :

« وأيّوبَ إذْ نادى ربّهُ انّي مَسّني الضُرّ وأنتَ أرْحَمُ الراحمينَ .

« فاستجبْنا لهُ فكشفْنا ما بهِ مِن ضُرّ . . . »

فعُلم أن أيوب بلغ الذروة من الكمال ساعة ندائه . . . إني مسني الضرّ وأنت أرحم الراحمين ! ! !

وعن « إسماعيل وإدريسَ وذا الكِفْل » قال :

« وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْل كُلٌّ مِن الصابرينَ » .

فعُلم أن أعلى صفة من صفات هؤلاء العظماء . . . صفة الصبر . . . وأنهم بلغوا ذروة الصبر . . . وأن هذه هي مفاتيح شخصياتهم العليا ! ! !

وعن يونس قال :

« وذا النّونِ إذْ ذهبَ مُغاضباً فظنّ أن لن نقْدرَ عليهِ فنادى في الظلماتِ أن لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانكَ إني كنتُ من الظالمينَ .

« فاستجبْنا له ونجّيناهُ من الغَمّ وكذلكَ نُنجي المؤمنين » .

فعُلم أن يونس بلغ غاية الكمال . . . في اللحظة التي نادى فيها

« لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين » . . .

أي أن يونس عليه السلام سجّل أعلى درجة تتصور من درجات التوحيد . . . لحظة ندائه بذلك النداء ! ! !

وهذا هو مفتاح شخصيته إن شاء الله . . . وسوف نفصل ذلك عن قريب . . .

وعن زكريا قال :

« وزكريّا إذْ نادى ربّه ربّ لا تذرْني فرْداً وأنت خيْرُ الوارثينَ .

« فاستجبْنا لهُ ووهبْنا له يحيَى . . . »

فعُلم أن أعلى لحظة سجّل فيها زكريا أعلى درجة من درجات توجهه إلى ربه . . . كانت لحظة « **ربِّ لا تَذرْني فرْداً . . .** »

ولذلك كانت الاستجابة على أوسع مدى من العطاء « **فاستجبنا له . . . ووَهَبْنَا له . . . يَحيَى** » . . .

أعطاه غلاماً . . . ونبياً . . . وعظيماً ! ! !

وعن مريم قال :

« **والتي أحصَنَتْ فرْجَهَا فنفخْنا فيها من روحِنا وجعلناها وابْنَها آيةً للعالمينَ** » .

فعُلم أن مريم بلغت أعلى ما يمكن أن تبلغه عذراء من العفاف والطهر... فكان العطاء عظيماً . . . جعلها آية . . . وجعل ابنها آية . . . للعالمين . . . لجميع العالم إلى يوم القيامة ! ! !

وكأنّه يريد أن ينبهنا أنّ ما ذُكر عن هؤلاء جميعاً . . . هو مفاتيح شخصياتهم فقال :

« **إنَّ هذه أمّتُكم أمّةً واحدةً وأنا ربّكم فاعبدونِ** » ! ! !

كل هؤلاء رسلي وأنبيائي . . . منَنَت على كل منهم بمنّة . .

وكلهم سفرائي إليكم . . . فلا تفرّقوا . . . ولكن توجهوا جميعاً إلينا . .

والآن ما هو مفتاح شخصية يونس عليه السلام ؟ !

مفتاح شخصيته يتشعشع من قوله« **لا إله إلاّ أنت سبحانكَ إني كنت من الظالمين** » ! ! !

أي أن الله ما زال يضطره ويضيق عليه حتى استخرج منه أعلى موجة في حقيقته . . .

« **فظنّ أن لن نقدِرَ عليهِ . . .**

« **فنادى في الظلماتِ أن لا إله إلاّ أنت سبحانكَ إني كنتُ من الظالمينَ** » . .

ظنّ أن لن نضيق عليه . . .

ولكن ضيقنا عليه . . . وصهرناه حتى تشعشع منه أرقى نور مكنون في شخصيته . . .

فنادى . . . لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . . .

في تلك اللحظة . . . بلغ يونس منتهى كماله . . .

وارتقى إلى أعلى مستوى يمكن أن يرقى إليه . . .

فلمّا تحقّق منه . . . أعلى ما يمكن أن يتحقق من حقيقته . . .

استجبنا له . . . « **فاستجبنا له ... ونجّيْناهُ من الغمّ . . . وكذلك نُنْجي المؤمنينَ** » ؟ ! !

كل مؤمن يتحقق منه أقصى ما يمكن أن تبلغه حقيقته من التوحيد . . . نستجيب له إذا نادانا . . .

ليس فقط فعلنا ذلك بيونس . . .

ولكن نفعل ذلك بكل مؤمن . . .

كأنه يراد أن يقال . . .

شخصية يونس . . . عليه السلام . . .

أو الحقيقة اليونسية . . . بلغت أقصى رقيها لحظة ندائها . . . لا إله إلاّ أنت سبحانك . . . إني كنتُ من الظالمين ! ! !

يونس ...

كما يراه ...

ابن العربي ..؟!

الشيخ الأكبر . . .

والكبريت الأحمر . . .

ابن العربي . . . له آفاق عليا . . . يحلق فيها . . . يفهمها القليل . . . ولا يفهمها الكثير . . .

وقد رأينا أن نزين هذا الكتاب بشيء مما قاله ذلكم الفذ المنقطع النظير . .

مع التنبيه — كما نبهنا مراراً في هذه السلسلة — أن آراء ابن العربي ليست إلزاماً لأحد . . . فمن فهمها فقد أضاف إلى علمه أفقاً رفيعاً . . . ومن ضاق بها فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . .

قال الأستاذ الأكبر الشيخ محيي الدين بن العربي . . .
في كتابه « فصوص الحكم » :

﴿ فص حكمة نفسية . . . في كلمة يونسية ﴾

قال شارح الكتاب الإمام القاشاني :

إنما خصت الكلمة اليونسية بالحكمة النفسية . . . لما نفس الله بنفسه الرحماني من كربه الذي لحقه من جهة قومه وأولاده وأهله . . . أو لما دهمه في بطن الحوت . . . أو من جهة أنه كان من المدحضين . . . أو

من جميع تلك الأمور . . . حيث سبح واعترف واستغفر . . . فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . . . فنفس الله عنه كربه . . . ووهبه سربه وأهله . . . قال تعالى — ونجيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين — وقيل نفسية بسكون الفاء لأنه ظهر بالنفس . . . وفارقهم من غير إذن الله . . . فابتلاه الله بالحوت . . . أي بالتعلق البدني ... والتدبير الذي يلزم النفس عند استيلاء الطبيعة . . . وخصوصاً عند الاجتنان في بطن الأم . . . ولهذا وصف بكونه عليماً . .

« إعلم » [1] أن هذه النشاة الإنسانية بكمالها . . . روحاً وجسماً ونفساً خلقها الله على صورته . . .

« فلا يتولى حل نظامها إلاّ من خلقها . . . إما بيده . . . وليس إلاّ ذلك . . . أو بأمره » .

بكمالها أو بمجموعها . . . ظاهراً وباطناً — كما ذكر في النص الأول — لأن المراد بآدم نوع الإنسان . . .

ولما خلقها بيديه على صورته لم يجز أن يتولى حل نظامها إلاّ هو . . . كما قال تعالى — الله يتوفى الأنفس حين موتها — .

وليس ذلك إلا لعدم جواز تخريب البنيان الإلهي إلاّ بيده على مقتضى حكمته . . .

أو بأمره كما في القصاص

« ومن تولاها بغير أمر الله » .

أي ظلما . . .

---

(1) هذا بدء كلام ابن العربي وميزناه بكونه بالبنط الاسود .

« فلقد ظلم نفسه وتعدى حد الله فيها . . . وسعى في خراب من أمره الله بعمارته .

« واعلم أن الشفقة على عباد الله أحق بالرعاية من الغيرة في الله » .

يعني أن الإبقاء على النفوس المستحقة للقتل شرعاً كالكفار والمشركين وغيرهم أحق بالرعاية . . . لأنها بنيان الرب من القتل غيرة في الله . . . أي في حقه وفي دينه من أن يعبد غيره ويعصى . . . مع أن الشرع حرّض على الغزو . . . فإن استمالة الكفار والمحالفة معهم شفقة على خلق الله . . . بنية حرمة من خلقه الله ورزقه رجاء في أن يدخلوا الإسلام . . . خير من تدميرهم وإهلاكهم . . .

كما فعل عليه الصلاة والسلام بالمؤلفة قلوبهم وغيرهم . . .

وقد يثيب الله على ذلك ولا يؤاخذ على عدم الغيرة . . . فإن الغيرة لا أصل لها في الحقائق الثبوتية لأنها من الغيرية . . . ولا غير هناك . . .

« وأراد داود عليه السلام بنيان بيت المقدس . . .

« فبناه مراراً . . .

« فكلما فرغ منه تهدم . . .

« فشكى ذلك إلى الله . . .

« فأوحى الله إليه « إن بيتي هذا لا يقوم على يدي من سفك الدماء » . . .

« فقال داود : يا رب ألم يكن ذلك في سبيلك ؟ . . .

« قال : بلى . . . ولكنهم أليسوا عبادي ؟ . . .

« قال : يا رب فاجعل بنيانه على يدي من هو مني . . .

« فأوحى الله إليه : إن ابنك سليمان يبنيه . . .

« فالغرض من هذه الحكاية مراعاة هذه النشأة الإنسانية . . . وأن إقامتها أولى من هدمها . . .

« ألا ترى عدو الدين قد فرض الله فيهم الجزية والصلح إبقاء عليهم ...

« قال — وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله —

ألا ترى من وجب عليه القصاص كيف شرع لولي الدم أخذ الدية أو العفو . . . فإن أبى فحينئذٍ يقتل . . .

« ألا تراه سبحانه إذا كان أولياء الدم جماعة فرضي واحد بالدية أو عفا ، وباقي الأولياء لا يريدون إلاّ القتل كيف يراعى من عفا ويرجح على من لم يعف فلا يقتل قصاصاً . . .

ألا تراه عليه الصلاة والسلام يقول في صاحب النسعة « ان قتله كان مثله » . . .

ألا تراه تعالى يقول — وجزاء سيئة سيئة مثلها — فجعل القصاص سيئة . . . أي يسوء ذلك الفعل مع كونه مشروعاً — فمن عفا وأصلح فأجره على الله — لأنه على صورته . . .

« فمن عفا عنه ولم يقتله فأجره على من هو على صورته . . .

« لأنه أحق به إذ أنشأه له . . .

« وما ظهر باسم الظاهر إلاّ بوجوده » .

هذه الحكاية . . . والأدلة كلها . . . أوردها لرجحان العفو على القتل . . . لأن الإنسان خُلق على صورة الله . . .

وقد أنشأه الله لأجله . . .

فالإبقاء على صورة الله أولى . . .

وكيف لا يكون أولى وما ظهر الله بالاسم الظاهر إلاّ بوجوده . . .

وأما النسعة فإنها كانت لرجل وجد مقتولاً . . . فرأى وليه نسعته في يد رجل . . . فأخذه بدم صاحبه . . . فلما قصد قتله . . . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن قتله كان مثله في الظلم » . . . إذ لا يثبت القتل شرعاً بمجرد حصول النسعة في يد آخر . . . وكلاهما هدم بنيان الرب . . .

والنسعة : حبل عريض كالحزام . . وقد يكون من السير أو الفدم . .

« فمن رعاه »

أي الإنسان

« فإنما يراعي الحق . . .

« وما يذم الإنسان لعينه . . . وإنما يذم الفعل منه . . .

« وفعله ليس عينه . . .

«وكلامنا في عينه . . . ولا فعل إلاّ لله . . . ومع هذا ذم منها ما ذم وحمد ما حمد » .

إذا أضيف الفعل إليه

« ولسان الذم على جهة الغرض مذموم عند الله » .

فإن ذم الصورة الإلهية راجع إلى ذم فاعلها الظاهر فيها لغرض يعود إلى نفس من يعلم أنه ينفعه أو يضره . . .

فإنه أراد أن ينفعه فضره . . .

« فلا مذموم إلاّ ما ذمه الشرع . . .

« فإن ذم الشرع لحكمة يعلمه الله . . .

« أو من أعلمه الله . . . كما شرع القصاص للمصلحة إبقاء لهذا النوع . . وإرداعاً للمتعدي حدود الله فيه – ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب – وهم أهل لب الشيء . . . الذين عثروا على سر النواميس الإلهية والحكمية . .

« وإذا علمت أن الله تعالى راعى هذه النشأة . . . وراعى إقامتها . . . فأنت أولى بمراعاتها . . . إذ لك بذلك السعادة . . .

« فإنه ما دام الإنسان حيّاً يرجى له تحصيل صفة الكمال الذي خلق له...

« ومن سعى في هدمه فقد سعى في منع وصوله لما خلق له . . .

« وما أحسن ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بما هو خير لكم وأفضل من أن تلقوا عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم ذكر الله » . . .

والسر في ذلك أن الغزو إنما شرع لإعلاء كلمته وذكره إن كانت الدولة للمسلمين والغلبة للمجاهدين . . . وإن لم يكن كذلك وكان بالعكس كان فيه نقصان عبيد الله الذاكرين له . . . وتفويت العلة الغائية . . .

فذكر الله تعالى مع الأمن من المحذور وهو الفتنة . . . وقتل أولياء الله . . . أفضل من الجهاد الظاهر . . .

وإن كان المقتول في سبيل الله على أجر تام . . . فذلك حظه بهدم أبنية الرحمن في صورة الإنسان .

« وذلك أنه لا يعلم قدر هذه النشأة الإنسانية إلاّ من ذكر الله الذكر المطلوب منه . . .

« فإنه تعالى جليس من ذكره . . .

« الجليس مشهود الذاكر ...

« ومتى لم يشاهد الذاكر الحق الذي هو جليسه فليس بذاكر . . .

« فإن ذكر الله سار في جميع أجزاء العبد . . . لا من ذكره بلسانه خاصة . . .

« فإن الحق لا يكون في ذلك الوقت إلاّ جليس اللسان خاصة . . .

« فيراه اللسان من حيث لا يراه الإنسان بما هو راء وهو البصر » .

الذكر المطلوب من العبد هو أن يذكر الله بلسانه مع نفي الخواطر . . . وحديث النفس . . . ومراقبة الحق بالقلب بأن يكون بقلبه مع المذكور . . . وبعقله متعقلاً لمعنى الذكر . . . وبسرّه فانياً في المذكور عن الذكر . . . وبروحه مشاهداً له . . . فإنه جليسه مشهود الذاكر . . .

فمتى لم يشاهده فليس بذاكر إياه . . . إذ لو ذكره لرآه . . .

فإن الذاكر بالحقيقة يغنى عن سوى المذكور حتى عن الذكر بالمذكور وعن نفسه . . . فإن نفسه من جملة السوى . . .

فيكون الذاكر هو المذكور . . . فيحييه الله له حياة طيبة نورية . . . بالبقاء بعد الفناء فيه . . . فيهنأ فيها العيش مع الله . . . بالله . . . معية لا بالمقارنة فيشهد به في كل ما يشهده . . .

وذلك معنى سريان ذكر الله في جميع العبد . . . حتى أفناه عنه . . . وأحياه به . . .

وإن لم يكن ذكره إلاّ بلسانه . . . فالذاكر ذلك الجزء منه الذي هو

اللسان . . . فلا يكون الحق إلاّ جليس اللسان لا جليسه . . . إذ لم يذكره بجوامع أجزاء وجوده . . . فيراه اللسان ويختص اللسان بحظ الإنسان .

« فافهم هذا السر في ذكر الغافلين . . . فالذاكر من الغافل حاضر بلا شك . . . والمذكور جليسه فهو يشاهده . . .

« والغافل من حيث غفلته ليس بذكر . . . فما هو جليس الغافل . . . فإن الإنسان كثير ما هو أحديّ العين — والحق أحديّ العين كثير بالأسماء الإلهية . . .

«كما أن الإنسان كثير بالأجزاء . . .

« وما يلزم من ذكر جزء ما . . . ذكر جزء آخر . . .

« فالحق جليس الجزء الذاكر منه . . . والآخر متصف بالغفلة عن الذكر . . .

« ولا بد أن يكون في الإنسان جزء يذكر به . . .

« فيكون الحق جليس ذلك الجزء . . . فيحفظ باقي الأجزاء بالعناية » .

هذا حال من يذكره ببعض أجزائه ويغفل عنه ببعضها . . . فيكون الحق جليس ذلك الجزء مجالسة تمثيلية . . . فإنه يعتقد كون الحق جليس الذاكر ... فإذا ذكره بجزء كان ذلك الجزء مختصاً بمجالسته دون ما لم يشتغل بذكره من الأجزاء . . . وكذلك شهوده . . .

وقد يختلف الذكر والشهود بحسب الأجزاء . . .

فإن ذكر القلب وشهوده جليسه بفضل كثير ذكر اللسان ومجالسته . . .

فإذا خشع القلب خشع جميع الجوارح بتبعيته . . . كما قال عليه

الصلاة والسلام . . . فيمن لعب بلحيته في الصلاة « لو خشع قلبه لخشع جوارحه » . . .

بخلاف سائر الأجزاء . . . فإن اللسان قد يذكر ويغفل عن الذكر سائر الأجزاء . . . فإذا سرى الذكر في جميع أجزاء العبد . . . وخشع العبد لربه بالكلية . . . كان الحق إذاً جليسه . . . بشهادة الله ورسوله . . .

ولا بد أن يذكر بجزء ما فيكون الحق جليس ذلك الجزء ... فيحفظ باقي الأجزاء بحكم العناية .... أي العلم باتصاله ببعض الوجوه . . .

« وما يتولى الحق هدم هذه النشأة . . . بالمسمى موتاً . . . فليس بإعدام . . . وإنما هو تفريق . . . فيأخذه إليه . . .

« وليس المراد إلاّ أن يأخذه الحق إليه — وإليه يرجع الأمر كله —

« فإذا أخذه إليه . . . سوّى له مركباً . . . غير هذا المركب . . . من جنس الدار التي ينتقل إليها . . . وهي دار البقاء . . . لوجود الاعتدال . . .

« فلا يموت أبداً . . .

« أي لا تفترق أجزاؤه » .

يعني ليس الموت إعداماً . . . وإنما هو تفريق الأجزاء المجتمعة . . .

فيقبض روحه وحقيقته إليه . . .

وتفرقه الأجزاء العنصرية . . .

فيجمع الله كلاً إلى أصله — وإليه يرجع الأمر كله —

فإذا قبضه اجتمع إليه قواه الروحانية . . . فسوّى له مركباً فعالياً . . . وصورة جسدانية ممثلة . . . غير هذا المركب الذي فارقه . . .

فإن كان من أرباب من تفتح له السماوات . . . خالط الملأ الأعلى وأرواح القدسيين . . . كما قال « أرواح الشهداء في قناديل معلقة تحت العرش » . . . وفي حديث آخر « في حواصل طيور خضر » . . . هي الأجرام السماوية . . .

وإن لم يكن من جملة من تفتح له أبواب السماء . . . ولا يستطيع أن ينفذ من أقطار السماوات . . . كما قال — لا تنفذون إلاّ بسلطان — فلا بد من مركب من جنس الدار التي ينتقل إليها . . . من عودات وتعلقات بصور مناسبة لقواه وحقائقه وصفاته الراسخة فيه وأخلاقه . . . ومن إقامة الدار التي انتقل منها إليها مدة . . . إلى مساعدة الطالع الإلهي الأسمائي الذي هو طالع طالعه المولدي بعد ربوبية أسمائية من سدنة الاسم العدل . . . فتسبقه الرحمة . . . وتناله في الغاية إن قدر له الواقي من هذه الأطوار . . . أن يفتح له أبواب السماء بمفاتيح الأمر . . . فيسوي الله له هيكلاً روحانياً نورياً مناسباً لهيأته البهية النورية في دار البقاء . . . لوجود الاعتدال . . . المقتضي لدوام الاتصال . . .

فلا يموت أبداً . . . ولا تفترق أجزاؤه . . . كما قال تعالى — لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى — .

* * *

قلت : نقف عند هذا الحد من كلام ابن العربي . . . وشرح القاشاني عليه . . .

وعلى القارىء أن يسأل نفسه : ما علاقة هذا كله بحياة يونس عليه السلام ؟ !

هل يريد ابن العربي أن ينبه إلى أن الإنسان لا يجوز هدم بنيانه . . .

وعلى هذا كان ينبغي على يونس عليه السلام . . . ألاّ يتعجل هلاك مائة ألف أو يزيدون . . . وكان ينبغي عليه أن يصبر معهم ويطلب إلى الله العفو عنهم رجاء أن يخرج منهم من يؤمن بالله ! . . .

وقد حدث منهم ما هو أعظم من هذا . . . فآمنوا جميعاً . . . وذ كروا الله جميعاً . . .

فلو عاجلهم الله بالإبادة كما ظن يونس أن ذلك واقع بهم لا محالة . . . لضاعت هذه الفرصة . . .

فكأني بابن العربي يريد أن يوجه عقولنا إلى تلك الحكمة الغالية ... حكمة الإبقاء على النوع الإنساني . . . وإمهاله ليراجع نفسه . . . ويرجع إلى ربه . . .

فتتحول تلك الألوف إلى أجهزة تسبيح لربها . . . بدلاً من إبادتها وتدميرها . . .

والله أعلم ! ! !

الفهرس

صفحة